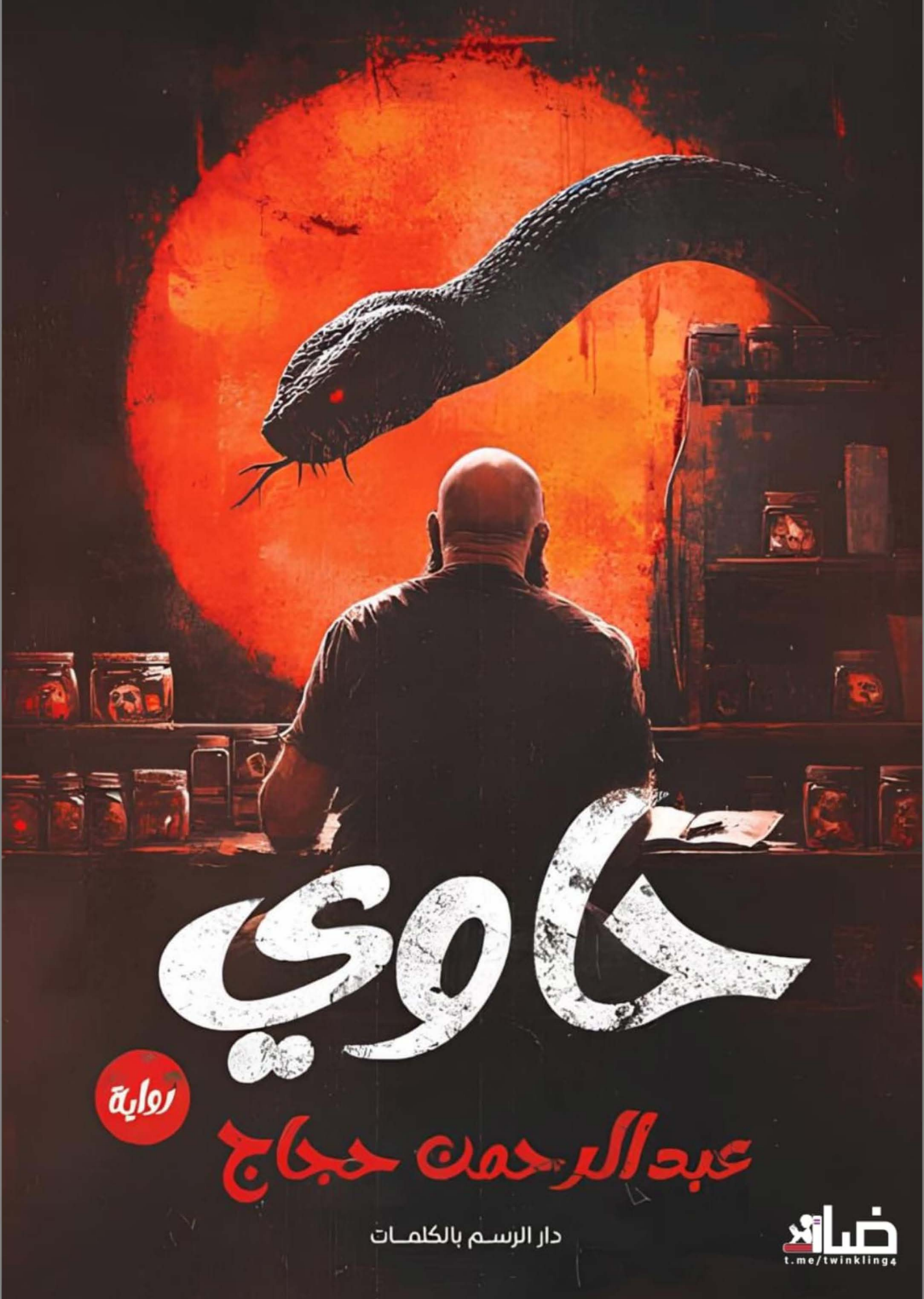

ضاد
t.me/twinkling4

http://elrasm-blkalemat.com
FB.com/elrasm.blkalemaat
Instagram.com/elrsmbkalemat
01061419555
http://elrasm-blkalemat.com

عنــوان الكتــــــاب:	هاوي
المــؤلــــــــــف:	عبد الرحمن حجاج
الطبعة الأولــــــى:	٢٠٢٥.
المراجعة اللغويـــــة والإخراج الداخلــــي:	Dr.Right
تصميـم الغـــــلاف:	عبير طوسون
رقــم الإيـــــداع:	2024/21923
الترقيم الدولـــــي:	978-977-8846-10-2

جميع الحقوق محفوظة للناشِر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

رواية

عبد الرحمن حجاج

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَـاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

تنويه

إذا وجدتَ بقعًا من الدماء على أصابعك وأنتَ تقرأ،

لا تقلق،

على الأغلب هي دماء إحدى الضحايا،

أو ربما هو تأثير الليدي ماكبث عليك!

"اللي حب وماطالش، كائن غير متزن."

فيلم الأصليين

"لعل روحه تبقى إلى الأبد، فإنه لن يموت مرة ثانية في العالم الآخر، كما أنه لن يُرد من الأبواب، ولا من أمام آبار ومداخل بوابة العالم الآخر، وكذلك لن يُهمل يوم المحاكمة".

إهداء

إلى البدايات..

تلك النهايات التي ترتدي أزياء الخداع وأقنعة الأمل.

إلى الأوهام..

تُرى، إلى متى سنبقى نتعلق بكم؟

إلى هؤلاء المقنعين،

ألم يحن الوقت كي تنزعوا تلك الوجوه المزيفة؟

وإلى العدل،

تلك الكلمة المجردة، والكذبة الأكبر في التاريخ..

"هو أنا وأنا هو..

هو حرب دايرة جوا..

جوا مني وبتقتلني..

مهما جريت أو هربت.."

لا يبدو أنه استوعب تمامًا ما فعل، الصمت يخيم على المكان باستثناء صوت أنفاسه التي كادت أن تخلع من بين ضلوعه الواهنة، جلس مرتاعًا في خوف، لم يشعر به من قبل طوال سنوات حياته، يتجمد الدم في عروقه كلما تذكر ما حدث، تتشابك أفكاره تخيوط العنكبوت البرازيلي الجوال فتغرس سمها في عقله فيزداد تشوشًا وخوفًا، يشعر أنه في كابوس لن يستيقظ منه مهما حاول، يجز على أسنانه حتى كادت تخلع من مكانها، تنتفض أوصاله بقوة ٩٠٠ ريختر، يتعرق كجبل من الجليد يذوب ببطء ليلاقي مثواه الأخير بين أحضان الغرق، أمسك ذراعه، بائسًا مرعوبًا، خرجت الكلمات من فمه بصوتٍ رخوٍ يكاد لا يسمع:

- أعمل إيه في المصيبة دي؟

- هنلاقي حل، ماتقلقش..

- انت فاهم أنا عملت إيه؟ أنا خلاص حياتي ضاعت!

- لو سمعت كلامي هطلعك من كل ده بكل سهولة!

لكل إنسان ذكرى أولى في حياته..

تبقى معلقة في ذاكرته حتى نهايته..

تراوده عن نفسه، تتراقص أمامه حتى إن بدت مشوشة وباهتة..

الذكرى الأولى التي لم أنسَها حتى إن كنت لا أتذكر تفاصيلها جيدًا، طفل صغير، يمسك بدمية غارقة في الدماء، يبكي في حرقة والدماء متناثرة فوق ملابسه..

صوت صراخ يخترق أذنيه، وفي الخلفية صوت فرانك سيناترا يغني في تحدٍ قائلًا...

I've loved, I've laughed and cried.

I've had my fill, my share of losing.

And now, as tears subside.

I find it all so amusing.

To think I did all that.

And may I say, not in a shy way.

Oh, no, oh, no, not me.

I did it my way...

لكل إنسان ذكرى أولى تحمل الكثير من الذكريات المبهمة والأسرار الدفينة، يجاهد عقلك كي تتذكرها، ويجاهد عقلك كي تنساها..

صرخات مرعبة يتردد صوتها في أذني، مشاهد باهتة وغير واضحة لحيوانات صغيرة معلقة على الحائط في استسلام ويأس، وثعبان ضخم يلتف حول رقبتي ليعرقل تدفق الهواء إلى جهازي التنفسي، أحاول أن أهرب إلا أنه يحكم قبضته بشكل أكبر.

أخضع له أخيرًا ليفتح فمه ويبدأ في ابتلاعي وأنا أنظر إلى نهايتي في هدوء تام.

انتبه يا عزيزي،

بعض الكلمات قد تكون مفتاحًا للنهايات، ولذلك نؤجلها لأجلٍ غير معلوم..

وبعضها يجب أن تبقى بداخلنا دون أن نبوح بها لأي سببٍ كان حتى نتأقلم مع سواد العالم..

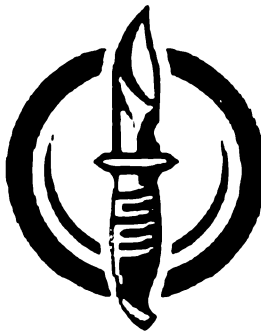

جلس رحيم لاشين يعدل من قميصه ويمسح بيده على شعره ليتأكد من هندمته، يسترق النظر لكل من حوله، يتأمل نظرات الإعجاب في أعين الناس، ولكنه لا يبدو مكترثًا تمامًا، اعتاد أن يرى تلك النظرات المبهورة لأعوام طويلة حتى أصبح يزهدها، تقف الجماهير صفوفًا أمامه في حبٍ وإجلال، يعلم كم يحبه قُرَّاءه ويعلم تمام العلم أنهم ينتظرون عمله الجديد من العام للعام في ترقب وهيام، يكتب رواياته لنفسه، يكتب كي يستمتع لا لسببٍ آخر، جلس على المقعد الجلدي الذي وضع خصيصًا لأجله في قاعة الندوات بمعرض الكتاب، يمسك بقلمه الباركر يوقّع في لا مبالاة، ينفذ مطالب جماهيره كإنسان آلي مستهتر،

يوقع لهذا ويأخذ صورة فوتوغرافية مع هذا، كان اليوم مملًا حتى اقترب منه أحد القراء مبتسمًا يحمل بين يديه رواية قديمة له، لم تكن من المفضلين لديه، ألقى عليه السلام ثم قال:

- ممكن توقيعك يا أستاذ رحيم؟ أنا من أقدم معجبينك..

قالها رجل أربعيني لا يتشابه مع جماهيره، سواء في الفئة العمرية أو الهيئة، إلا أن رحيم ابتسم في هدوء وأجابه:

- شرفتني يا أستاذ...؟

- وليد، التوقيع باسم وليد، بس اسمح لي أقولك من غير زعل، الرواية الأخيرة ماعجبتنيش، أسلوبها كان ضعيف وكنت تايه في أحداثها..

ضغط رحيم على أسنانه وقال بالابتسامة الأكثر اصفرارًا في العالم:

- اللي جاية هتعجبك..

- أصل الكتب مابقتش رخيصة، نركز بس في اللي جاي عشان الجماهير..

قالها الرجل بشيء من التهكم الذي لم يرُق له، وقع له رحيم في هدوء، خرج الرجل من القاعة، استأذن رحيم من الجماهير ليخرج لدقائق كي يحتسي قهوته، غادر بوابة معرض الكتاب بخطوات ثابتة، تحرك خلف الرجل حتى موقف السيارات، وفور أن دلف إلى سيارته فوجئ برحيم

يتبعه للمقعد المجاور، نظر له في حيرة وهو يحاول استيعاب الموقف. ابتسم في قلق وقال متسائلًا:

- أستاذ رحيم، خير يا فندم؟

- حبيت أعتذرلك عن الرواية اللي ماعجبتكش، أوعدك مش هتتكرر تاني!

لم يمهله رحيم وقتًا ليستوعب أو يجيب، أخرج من جيبه سكين (دبيا) الياباني الذي يحمله دومًا، وفي ثوانٍ كانت شفرته الحادة تُقبل رقبة الرجل قبلة الوداع الأخيرة، اخترقت السكين وريد رقبته مرورًا بالغدة الدرقية، عاجل رحيم نزيف الدم بقطعة من القماش وضعها بأكملها في تلك الفجوة الصغيرة في رقبة الرجل غير المصدق لكل ما يحدث بعدما دس حفنة من أفاعي برِبادوس في رقبته كتذكارٍ صغير لصاحب الحظ السعيد الذي سيجد الجثة بعد قليل.

مسح رحيم بعض بقع الدم المتناثرة في أرجاء السيارة، ترجل من السيارة ليخرج من جيبه الآخر بخاخة الربو الخاصة به، سحب نفسًا عميقًا منها، حتى عاد للتنفس بشكلٍ طبيعي ثم عاد مرة أخرى لجماهيره المنتظرين بابتسامة حقيقية للمرة الأولى منذ بداية اليوم.

انتبه يا عزيزي،

لا يوجد ما يسمى بالنهايات السعيدة إلا في الأفلام الرخيصة

أو في الليالي الحمراء!

الجميع كان يحب منة، كانت الأجمل والأطيب، كانت ملاكًا هبط خلسة على الأرض ليملأ حياة من حوله بالسعادة والنقاء، الجميع كان يحبها إلا أن قلبها لم يختَر سوى مازن، حب الطفولة والشباب، كل ما علمت في يوم من الأيام من وعود كانت له هو ولا أحد سواه، وكل ما وهبه الله من مشاعر كانت فقط لها ولا لأحد سواها، كانا حديث الجامعة وقصة الحب الأشهر بين الأصدقاء، الجميع يبحث عن حبٍ مثل حب مازن ومنة.

تخرجا سويًا من كلية التجارة، تقدم مازن لخطبتها فوافق الأهل بلا تفكير، فهم يعرفونه منذ أن كانت منة طفلة صغيرة ويعرفون عائلته وتربيته. تمت الخطبة سريعًا، بدأ الاثنان في تجهيز منزل الزوجية بكل سعادة ونشاط، كان التفاهم دائم الحضور بينهما في كل شيء، وكأن القدر أراد أن يحدث كل شيء بكل بساطة وبلا أي عراقيل.

بعد عامٍ واحد حددت الأسرتان موعد الزفاف، وفي الصيف التالي أقام العروسان فرحًا جميلًا بسيطًا يحاوطه الحب والسعادة من كل الأركان. انتهت مراسم الزواج ومضت ساعات ليلة العرس، واتجه الحبيبان لغرفتهما أخيرًا في الفندق الفاخر وهو ما زال لا يصدق أنه أخيرًا تزوج من حب حياته وأنها ستكون بعد دقائق بين أحضانه، اقترب منها مازن في حبٍ بالغ ليقبلها إلا أنها ابتعدت في خجلٍ واستأذنته كي تبدل ملابسها في الحمام أولًا.

- مستعجل على إيه؟ هو أنا هطير؟ وبعدين اتلم شوية!

- كل السنين دي وعايزاني ما استعجلش!

ضحكت وقبَّلته على خده، ابتسم لها وأخبرها أنه في انتظارها، جلس على طرف الفراش يبدل ملابسه على عجالة.

بعد دقيقتين سمعت منة صوت ارتطام عنيف تبعها صرخة مدوية من الخارج، ارتدت روبها الحريري سريعًا مغطيةً جسدها العاري لترى مشهدًا لن تنساه طوال حياتها، أفقدها النطق إلى الأبد، كانت الغرفة بأكملها ملطخة بالدماء وكأن معركة عاتية حدثت بها منذ قليل، على الفراش استقر جسد مازن العاري كملاك نائم، باستثناء أنه ملاك بلا رأس، فوق التسريحة استقرت رأسه و على المرآة كُتب بالدم:

"التعابين لازم تتقطع من راسها.. مبروك الجواز".

انتبه يا عزيزي،

الأطفال ينعمون بطفولة سعيدة وبيتٍ دافئ في حكاوي الأطفال فقط!

يعيش معظم الأطفال حياةً حزينة، متعبة، كي تتشكل شخصياتهم المشوهة مع الأيام..

انتبه يا عزيزي،

أنت وحدك تمامًا!

بعض الأشياء تحدث فقط لأنها يجب أن تحدث، ليس كل ما يحدث من أفعال ومواقف يحمل بين طياته مؤامرة كونية ضدك، أنت لا شيء، صدقني، أنت مجرد كيان غير مرئي في عالم بغيض لا يرى سوى نفسه في المرآة كل صباح ومساء، أنت بقعة بيضاء متناهية الصغر فوق حلة بيضاء يرتديها العالم في يومٍ هام، فلا يراك ولا يكترث حتى لوجودك إن لمحك، مسكين من يظن أنه صاحب أهمية، الكل يتحرك، الكل يدور في فلك روتينه وماهيته.

افترش الأرض يا عزيزي واشرع في البكاء، لن ينظر أحد لك، العالم لديه ما يكفي من الدموع، العالم لديه ما يكفي من الألم، ولديه ما يكفي من النرجسية وحب الذات، حتى يتجاهلك بكل ما أوتي من كبرياء وتبجح.

بعض الأشياء تحدث لأنك لم تمتلك في يومٍ من الأيام مقومات الحظ، مثلك مثل الكثيرون من البؤساء، الحالمون المغيبون، لم يكتب النجاح والحظ للجميع، لم تكتب السعادة والرفاهية للجميع، وأنت يا عزيزي لم تحاول أن تتمرد على حياتك، لم تحاول أن تصرخ في وجه القدر ولو لمرة واحدة، ولم تحاول أن تخرج الوحش الكامن في أحشائك ليزمجر غضباً عن سلبيتك.

قم يا عزيزي، تمالك نفسك واحترم ما تبقى لك من ذاتك.

ابتسم يا عزيزي، فالعالم لا يمتلك من رفاهية الوقت حتى

يسندك ويأخذ بيدك، أنت وحدك تمامًا، إن لم تستطع أن تقف حاول فقط أن تستند بجانب أي حائط، جسد متسخ محني أفضل من جسد ملقًى كالعفن في شوارع الخوف والبغضاء.

قم، فالحياة تخبئ لك الكثير من الأفاعي خلف كل باب، وأنت لم تكن في يومٍ من الأيام حاوٍ قادر على أن يروض تلك الأفاعي لتتراقص له في دلالٍ بدلًا من أن تفتك به..

مر أسبوع واحد على دخوله السجن، عالم جديد موحش لم يألفه رحيم في يومٍ من الأيام، مصير لم يتصور الوصول إليه إبدًا. الحر يخيم على أرجاء الغرفة الضخمة، العرق ينهال من الجميع بفعل الحرارة وأبخرة الطعام ذات الرائحة الكريهة، والصمت المطبق يملأ المكان باستثناء صوت الأواني.

وقف المساجين في صفٍ طويل ينتظرون دورهم لاستلام وجبة الغداء في قاعة الطعام بسجن الحصن، الجميع ينتظرون بفارغ الصبر الوجبة البائسة التي سيتناولونها بعض دقائق وكأنهم في انتظار وجبة فرنسية في أحد المطاعم المفضلة لدى ميشلان، في منتصف الصف وقف

رحيم ينظر إلى السقف في ملل، لا يفكر سوى في رغبته في العودة إلى زنزانته حتى ينعم ببعض الوحدة، يفكر في جسده المنهك الذي لم يذق طعم اليوم منذ وصوله للسجن، وبينما هو غارق في أفكاره، وقف على مقربة منه سجين آخر شديد الضخامة يرمقه بنظرات متأهبة.

وصل رحيم لدوره أخيرًا، هز رأسه لموظف المطبخ، ثم مدَّ يده له بالصينية الخاصة به ليبدأ الموظف بوضع الطعام، وقبل أن يرحل رحيم اقترب منه السجين الضخم ليمسكه من تلابيبه في غضب وقال:

- انت مالك ياض سايق العوج علينا ليه؟ مابتكلمش حد ولا حتى بترمي السلام! انت فاكر نفسك في الجنينة؟ انت هنا في السجن! والسجن ليه كبير!

جالت عين رحيم بين عيون هذا الضخم وبين موضع يده التي لم تترك ملابسه، ولكن لم يجب فأكمل السجين كلامه بنفس الحدة:

- اسأل أي حد في المخروبة دي مين صفوان الأسطورة! من النهاردا تديني التمام كل يوم! وتتعدل ياض بدل ما أعدلك!

ابتسم رحيم في صمت ومد يده بكل هدوء ليبعد يد صفوان عنه، كان جميع السجناء يشاهدون المشهد في حماس، تطوع أحدهم وقال موجهًا كلامه لرحيم وهو يزيح يد صفوان عنه:

- بتشيل إيد الأسطورة من عليك يا غشيم؟ دي الإيد اللي جابت رقبة المعلم سيد ناموسة ألف رحمة ونور عليه! خاف على نفسك وعدي مدتك!

ضحك صفوان وقال:

- معلش يا بعجر، الجدع لسه مستجد، والغربال الجديد له شدة..

قرب وجهه لوجه رحيم وقال بصوته المخيف ونفسه الكريه:

- انت هنا محبوس معانا، يعني تمشي على الصراط المستقيم بدل ما تزعل!

تبدلت ملامح رحيم الهادئة ليحل محلها وجهٌ مخيف يزمجر في صمت، وفي لحظات كانت الصينية التي يحملها تقطع شفاه صفوان العلية إلى نصفين، انتفض صفوان من هول المفاجأة، حاول أن يمنع نزيف الدم من الانبثاق على ملابسه حتى لا تضيع هيبته بين المساجين وباليد الأخرى حاول أن يمسك برحيم إلا أن الأخير لم يمهله الوقت، مد رحيم يده لوعاء الشوربة وقام بسكبها فوق وجه صفوان الذي احترقت ملامحه في الحال، جلس رحيم على ركبتيه وهو يمسك برقبة صفوان المحترقة في عنفٍ وهو يقول صائحًا موجهًا كلامه لباقي المساجين المذعورين:

- لو حد فكر يكلمني نص كلمة هيزعل زي الراجل ده، وخليكم عارفين إني مش محبوس معاكم!

سكت للحظات وهو يجذب صفوان من شعره المحترق ويشير برأسه إلى الجميع ثم أكمل قائلًا:

- انتم اللي محبوسين معايا..

عاد إلى غرفته مبتسمًا في نفر، نام بعمق للمرة الأولى منذ وصوله، وفي اليوم التالي صدر قرار بأن ينتقل رحيم لزنزانة منفردة حتى يتم تنفيذ حكم الإعدام عليه.

البداية

القاهرة – ٢٠٢٢

خلال الأسابيع الماضية، لم تتوقف الصحف والمواقع الإلكترونية البيضاء منها والصفراء عن تناول حديث الساعة والخبر الأهم في البلد، "القبض على القاتل المتسلسل رحيم لاشين المعروف إعلاميا باسم رحيم الحاوي، والحكم عليه بالإعدام بعد التحقيقات واكتشاف جرائمه العديدة، والتي بلغ عددها ٩ جرائم قتل". لتكتب الصحف كل ما يعرفونه عنه، سنواته كقاتل وحياته كروائي شهير، كل الإشاعات التي كُتبت عنه، طفولته وحتى علاقاته الشخصية، الكل يكتب والكل ينقل من صحف أخرى دون التفكير حتى إن كانت الأخبار صحيحة

أم لا، حاول العديد من الصحفيين أن ينفردوا بحوار صحفي مع رحيم، إلا أنه كان دائم الرفض، لا يتحدث مع أحد ولا يقابل أحد، إلا أن هذا الصحفي الشاب كان له رأي آخر من قرار رحيم.

وقف تامر، هذا الصحفي الشاب غير المهندم تمامًا في هيئته، وملامحه الطيبة يتطاير منها كل معاني الشغف والحماس وهو يناول الأوراق والتصاريح للضابط العشريني الذي جلس أمامه يتصفح تلك المستندات وهو يسحب النفس الأخير من سيجارته لينفث دخانها في وجه هذا الشاب البائس ويقول له بوجه بارد:

- جاي عشان الحاوي؟ مش كانوا قايلين مش عايز يقابل حد!

- بنجرب حظنا يا فندم، دعواتك يا باشا..

كاد الدخان يقتله إلا أنه تظاهر بعدم الاهتمام، ابتسم للضابط بعدما أخرج أخيرًا من جيبه كارت صغير ناوله إياه وهو يقول بوجه لم تفارقه الابتسامة رغم شعوره بالاختناق سواء من دخانه أو أسلوبه الفظ، يعلم أنه يشبه أغلب الضباط في هذا السن، مبهور بهيئته، مختالًا بنفسه، فقرر تامر أن يعطيه ما يريد من تقدير مزيف كي يحصل على مراده.

- تصاريحك كلها مظبوطة؟ الورق يقول إن عندك ميعاد مع سامي باشا العمري؟

- مظبوط يا فندم، تامر الأميري، صحفي في جريدة حديث الشعب، وزي ما حضرتك شايف كده الأوراق دي تصريح الحوار اللي هعمله مع الحاوي.

ألقى الضابط بالكارت على الطاولة بلا اكتراث وقال بنبرة تحمل الكثير من النرجسية الكاذبة:

- وماله، بس ماتنساش بقى في المقال تكتب اسمي، ده أنا هدخلك على الباشا الكبير بنفسي، معاك النقيب هيثم الطير.

أخرج تامر هاتفه المحمول ليضعه أمام وجه الضابط وقال في ابتسامة ماكرة:

- ده احنا يزيدنا شرف معاليك، الضحكة الحلوة بقى عشان صورة سعادتك تتحط مع المقال.

ابتسم الضابط في ارتياك وعدل من وضع غطاء رأسه للصورة الفوتوغرافية ليأمر بعدها الجنود بفتح باب السجن، وأشار لتامر أن يتبعه حتى مكتب العقيد، تحرك تامر وراءه كالمجذوب والخوف يتملك قلبه، إنها المرة الأولى له داخل جدران السجون، وهذا السجن تحديدًا لا يشبه السجون الحديثة التي يراها دومًا في التلفاز، بل هو الآن يسير في مكان قاتم يتغذى على الخوف والوحدة كوحش من قصة إغريقية لا تحمل نهاية سعيدة.

خلف مكتبه، جلس رجل أربعيني أشقر الرأس، هادئ الملامح، يتابع مباراة في تلفاز صغير قابع إلى جانب مكتبه،

أما على المكتب وضعت لافتة خشبية كتب عليها (عقيد سامي العمري - مأمور السجن)، ابتسم هيثم له في احترام ووضع أمامه كل ما أعطاه تامر من أوراق بعدما أدى التحية له، فشكره العقيد وأشار له بيده أن ينصرف ثم أشار لتامر أن يجلس، وعاد مرة أخرى إلى المباراة والتي كان منهمكًا في متابعة تفاصيلها وأحداثها.

حاول بعد لحظات أن يبدأ تامر كلامه معرفًا نفسه، إلا أن أذنيه الحمراء وحواسه المنهمكة في المباراة أبجمته، فقرر الصمت تمامًا حتى ينتهي الأخير من مباراته. وبعد نصف ساعة تقريبًا انتهت المباراة وبدأ العقيد سامي ينتبه أن هناك من يشاركه مكتبه، فابتسم له في ودٍ وقال بعدما نظر نظرة خاطفة للأوراق أمامه:

- زملكاوي ولا أهلاوي يا أستاذ تامر؟

خاف تامر أن يجيب بما لا يتناسب مع ذوق الضابط، فقال مبتسمًا:

- بصراحة حضرتك أنا ماليش في الكورة، مابحبهاش.

- والله جدع، حبي للكورة هو اللي جايلي الضغط، متخيل العبط؟

ابتسم تامر في توتر خشية أن يجيب بما لا يعجب الضابط مرة أخرى والذي أكمل كلامه قائلًا:

- شكلك ابن حلال، إيه اللي يخليك عايز تعمل حوار

مع الحاوي؟ دلوقتي الصحفيين بيدوروا على حوار مع فنانة ولا بلوجر قالعة نص هدومها عشان المشاهدات ولا حتى أي عبيط طالع ترند بيترقص في أي حتة، بس الحاوي! دي اللي بالنسبالي غريبة! وبعدين انت عارف إنه رافض يتكلم مع أي صحفي؟ انت لولا إن مديرك حبيبي ماكنتش حاولت أساعد حتى!

- أنا متابع القضية بتاعته بقالي فترة طويلة، من أول جريمة عملها وأنا بيلفت نظري أسلوبه وتفكيره، والمقال ده ممكن نعتبره بذرة لحاجة أكبر بعد كده. أما على موضوع موافقته فيمكن حبيت أجرب حظي معاه وأشوف.

- إيه؟ عايز تكتب عنه رواية مثلًا؟

قالها الضابط بسخرية، إلا أن تامر لم يكترث وأكمل كلامه قائلًا:

- طول عمري بشوف إن فكرة القاتل المتسلسل فكرة أجنبي شويتين، زي الأبطال الخارقين كده، عمرك ما هتلاقي عندنا حكاية زي باتمان، وعمرك برضو ما هتلاقي حكايات تشبه تيد بوندي اللي نفذ ٤٠ جريمة قتل، أو جيفري داهمر المختل اللي كان بيغتصب الرجالة وبعدها يقتلهم، المجرمين عندنا على قدهم في الإجرام، مجرمين طيبين، والجرايم بتاعتهم بتبقى بدافع رد الشرف أو السرقة، الحكاية الوحيدة اللي شدتني إني أتابعها وأكتب عنها هي حكاية الحاوي.

سكت الضابط قليلًا وكأنه يقلب ما قاله تامر في رأسه ليهز رأسه مقتنعًا قائلًا:

- كلامك حالم بس دخل دماغي، وأنا بحب التحدي، عمومًا أنا هسمحلك تقعد معاه النهاردا ربع ساعة، ونبقى نشوف بعدها الدنيا هيجرى فيها إيه، بس أنا لازم أنبهك إن الحاوي أذكى مما تتخيل، وأخطر مما تتخيل، ماتصدقش كل اللي يتقالك، وبلاش تخليه يكسبك في صفه.

مد تامر يده مصافحًا العقيد سامي وقال بابتسامة ممتلئة بالثقة:

- أوعدك إني هاخد بالي، كل الشكر يا فندم.

ضغط زرًا بجانب مكتبه، دلف على أثره أحد الجنود والذي طلب منه أن يصحب تامر للغرفة التي سيقابل فيها الحاوي، كان تامر يسير خلفه وهو يحمل بداخله شعورًا ملحًا بأنه يريد أن يركض هربًا الآن، ولكنه في قرارة نفسه يعلم أن تلك المقابلة قد تغير حياته إلى الأبد وأنه يجب أن يستغل تلك الفرصة التي ربما لن تتكرر.

الغرفة تشبه كثيرًا تلك الغرف التي نراها في الأفلام، إضاءة نيون مزعجة للعين، طاولة معدنية مثبتة في الأرض، كرسيان معدنيان مثبتان هما أيضًا، وصوت مستفز لتساقط قطرات المياه في تململ ورتابة آتية من مكانٍ مجهول.

دلف تامر إلى تلك الغرفة بأقدام لا تحمله وروح لا تواكبه في السير، جلس لدقائق يراجع أسئلته حتى قطع

حبل أفكاره دخول أحد العساكر عليه ليظهر من ورائه النجم الأشهر لصفحات التواصل الاجتماعي والصحف طوال الشهور الماضية، رحيم الحاوي.

بدأ تامر يتأمله كمن يتأمل القمر بتليسكوب فلكي دقيق، تحمل أذرعه العديد من الرسومات والعبارات الموشومة، إلا أن الوشم الذي لفت انتباهه بشكل كبير كان وشمًا لثعبان صغير على الساعد، حليق الرأس تمامًا إلا أن شعر ذقنه لم يعرف طريق الموس منذ فترة طويلة على الأرجح، ملامحه جامدة لا تُظهر سنه أو مشاعره الحقيقية، عريض الجسد، عينين مطفئتين كمحاق القمر.

ربط العسكري أصفاده بمقعده ثم تركهم وخرج، وفي اللحظة التي أغلق فيها الباب، تمنى تامر من كل قلبه لو كان في طريقه إلى البيت، ابتلع ريقه بصعوبة وقال مبتسمًا:

- شرف ليا إني أحاور شخص مثير للجدل زيك يا أستاذ رحيم. أنا تامر الأميري صحفي في جريدة حديث الشعب ومهتم جدًا بحكايتك.

نظر له رحيم بعينٍ ثابتة خالية من الحياة، لا تتحرك عيناه ولا يرمش، إلا أنه لم يجاوبه، فقط ظلت عيونه الباردة مثبته عليه بشكل مخيف، فأكمل تامر كلامه قائلًا في توتر:

- اسم رحيم الحاوي هو اكتر اسم شاغل الرأي العام الفترة دي، وعشان كده حبيت إني أعمل معاك حوار أعرف أكتر عنك، وماتقلقش، أنا مش من الصحافة

الصفراء اللي بتدور على مانشيتات كاذبة أو خبطة صحفية على حساب حد، أنا هنا عشان الحقيقة وبس.

إلا أن الحاوي لم يجبه، ظلت عيناه ثابتة عليه كصقر يراقب فريسته في تمعن، ولكن تامر لم يستسلم لهرمون الأدرينالين الذي بدأ يتسلل من جسده النحيل مصحوبًا بهرمون الكورتيزول اللعين، وقال بنبرة تحمل القليل من اليأس كشحاذ يستنجد بسيارة فارهة بلا كلل:

- أنا انسان على حافة الهاوية يا أستاذ رحيم، خسرت كل حاجة في حياتي في وقت قليل جدًا، خسرت مراتي عشان مش قادر أصرف عليها، خسرت بيتي اللي بحبه واستبدلته بشقة حقيرة عشان مش قادر أدفع إيجار بيتي، الحاجة الوحيدة اللي فاضلة لي والأمل الأخير اللي متعلق بيه هو الحوار اللي هعمله معاك، يمكن الحوار ده يخليني قادر من تاني أبقى بني آدم له لازمة وأعمل اللي كل الصحفيين ماعرفوش يعملوه.

بدا بعض الاهتمام على وجه الحاوي، إلا أنه لم يجبه، ظلت عينه معلقة عليه لكن دون أن ينبس ببنت شفة، طال الصمت لدقائق مرت كالأعوام، فما كان لتامر سوى أنه قام من مكانه وبدأ يلملم أوراقه وخيبته استعدادًا للرحيل، وقبل أن يغادر الغرفة أتاه صوت حاوي الهادئ قائلًا: حاوي..

أجمه صوته المخملي رغم هدوئه، وكأن الأحرف تخرج

من بئر دفين لا من حنجرة إنسان، شيء ما في نبرته جعل تامر يشعر بقشعريرة تسري في جسده، شعر ببصيص من الأمل، إلا أنه لم يفهم ما قاله، فسأل في أدب يشوبه الخوف:

- معلش.. ممكن حضرتك تقول تاني؟

ابتسم حاوي نصف ابتسامة مخيفة بعض الشيء ثم أجابه موضحًا:

- اسمي حاوي.. مش الحاوي، زي تامر كده مش التامر.

- بعتذر ليك، ماكنتش أعرف.

فأجابه بنبرة مطمئنة:

- ما دام ماتعرفش يبقى ماتعتذرش، كونك جاهل بشيء يبرئك من ذنبه لحد ما تعرفه، ساعتها بس بتتحول لمذنب.

شعر تامر بغصة في معدته مصدرها الحيرة من طلاسمه، استشف أن حاوي شخص غير اعتيادي في كل شيء، وهو لم يعتد على هذا النوع من المقابلات من قبل، ولم يعتد على أي نوع من ألعاب الذكاء طوال حياته المهنية، هو مجرد صحفي بسيط أقصى نجاح قام به في حياته كان مقالًا صحفيًا عن إحدى فنانات التيك توك ممن يحترفن إهانة أنفسهن لأجل بعض الدولارات، اعتاد ألا تفارقه

الابتسامة أينما ذهب ومهما سمع حتى يكسب الجميع إلى صفه، إلا أن شيئًا ما في هذا الرجل أشعره بقلق غير اعتيادي.

- بصراحة، اللي اتنشر عنك لفت انتباه ناس كتير وأنا منهم، بس دايمًا الحكاية بتبقى ناقصة لما بنسمعها من حد غير صاحبها.

أجابه حاوي بنفس الهدوء وقال:

- ساعات أصحاب الحكاوي يحرفوها بالشكل اللي يرضيهم، مش دايمًا المؤلف بيكتبلك الحقيقة كاملة، زي اللي بيكتب التاريخ بالظبط، بيكتبه بإحساسه في أوقات، أو باللي يرضي ضميره أو مصالحه في أوقات تانية.

- وانت حكايتك لو هتحكيها، هتحكي الحقيقة الكاملة ولا بالشكل اللي هتحب ترسمه؟

تنهد حاوي وقال بنبرة موضحة تحمل القليل من التحذير:

- أنا حكايتي تخص بس اللي عاشها، إيه المتعة إنك تسمع حكاية شخص زيي؟ أنا ممكن أحكيلك كذا رواية، وكل رواية هكتبهالك بالشكل اللي يخليك تصدقها، إحنا بنوع الحواديت عندنا حاجة اسمها السرد، عارفها؟ أنا ممكن أكتبلك سرد شيق ولا كأنك بتتفرج على فيلم لتارنتينو! بس أنا عمري ما شوفت إن حكايتي مبهرة زي ما الناس بتقول، أنا يمكن قررت أكون روبين هود في عالم مافيهوش أبطال، حبيت أكون فكرة، حبيت ماكونش

الحاوي على قد ما حبيت إني أكون مجرد حاوي من ملايين هيعيشوا بالمنهج والفكرة دي، يمكن ساعتها العالم يبقى مكان أحسن.

يستمع في اهتمام، شعر تامر بسعادة غامرة لأن حاوي قرر أن يتحدث معه حتى إن كان حديثًا مطلسمًا غير مفهوم تمامًا، أو ربما لا يتناسب مع قدرته على الفهم والاستيعاب.

- كلامك ده يخليني عايز أعرف القصة أكتر، أنا عندي يقين إنك هتحكي حكاية هتفرق مع ناس كتير!

ضحك حاوي في سخرية وقال:

- غريبة الدنيا دي، سايبين قصص نجاح حقيقية لمبدعين ودكاترة وعلماء وجاي تعرف حكاية واحد زيي! قد إيه إحنا عالم سادي! بيستمتع بالدم أكتر من أي شيء تاني، لما كنت أهم كاتب في الوطن العربي ماشوفتش في عيون الناس لهفة معرفة أخباري زي اللهفة اللي بحس بيها دلوقتي بعد ما بقيت رحيم الحاوي مش رحيم لاشين.

- تفتكر العالم مكان سادي بجد؟

- أفتكر إن كل إنسان جواه قاتل مستني لحظة الإقلاع.

- ممكن تشرح لي أكتر؟

حكَّ حاوي صلعته في انفعال وكأنه يطرد شيئًا ما من رأسه، ثم قال بعدما أخذ نفسًا عميقًا:

- النفس البشرية دي عاملة زي مكان ضلمة، مكان مخيف وقبيح، سمعت عن تجربة (إيقاع صفر)؟

حاول تامر أن يُظهر لحاوي خبرته في المعلومات العامة، إلا أنه تراجع لعدم درايته بتلك التجربة، فهزَّ رأسه بالنفي، ليكمل حاوي كلامه قائلًا:

- مارينا ابراموفيتش، كانت فنانة تشكيلية، عبقرية بس مجنونة، مارينا عملت تجربة في السبعينات عشان تكتشف حدود البشر، إيه اللي ممكن يحصل لما تحط الإنسان في موقف يختبر طبيعته؟ ازاي الإنسان هيتصرف لما يحس إن اللي قدامه ضعيف؟ وقفت مارينا في متحف كأنها مانيكان، وعلى الترابيزة اللي جنبها أدوات كتير، ورد وألوان وأكل، وبرضو كان فيه أدوات مخيفة زي سكاكين ومسدس، وكان للجماهير مطلق الحرية يعملوا فيها أي حاجة لمدة ست ساعات، ست ساعات هتفضل في حالة ثبات لاكتشاف طبيعة الإنسان.

أثارت القصة انتباه تامر بشكل كبير، والذي بدت ملامحه بأكملها كأنها مثبتة مع حاوي في تركيز شديد. هزَّ رأسه باستجداء كي يكمل القصة، فابتسم وقال:

- في البداية كان التفاعل معاها لطيف، فيه اللي اداها وردة، فيه اللي حضنها، وفيه اللي جابلها أكل، بس بعد شوية ومع شعور الناس بإنها لا حول لها ولا قوة وإنها مش بتبدي أي رد فعل، بدأت حقيقتهم تظهر، الجماهير

بدأت طريقتهم تتغير، واحد قلعها هدومها، واحد تاني هددها بالمسدس اللي كان محطوط، وغيره بدأوا يرسموا على جسمها بشكل همجي ويعوروا جسمها جروح سطحية بالسكاكين، وكل ده وهي في حالة ثبات، مجموعة منهم وصل بيهم الجنون بإنهم حاولوا يغتصبوها، ماحدش اهتم بدموعها، ماحدش اهتم بكونها إنسانة حتى لو ثابتة بلا حركة. الإنسان كائن مخيف، جواه شر كامن يستنى للي قدامه أي لحظة ضعف عشان تظهر، وزي ما قولت لك من شوية، كل واحد جواه قاتل مستني لحظة الإقلاع!

***

في نفس التوقيت، جلس داوود، ذلك الضابط الشاب، في منزله على طاولة الطعام في صمت، لا يشيح ببصره عن تلك السكين القابعة أمامه في خنوع، تراوده عن نفسه كفتاة لعوب، تدعوه ليلمس ثناياها، يتحسسها، يفكر بين اللحظة والأخرى أن يسحب السكين ويطعن بها قلبه الحزين، إلا أن تلك المسكينة التي تشاهد التلفاز في الغرفة المجاورة ولا تكف عن الضحك مثل الأطفال أمام قفشات محمد هنيدي هي التي تمنعه من أن يتخذ هذا القرار، يرى نفسه بلا فائدة ولا نفع في تلك الحياة، يرى أنه لا يستحق الحياة بعدما خسر وظيفته وكرامته في ليلة واحدة.

إكليل، السعادة التي لم يحلم بأكثر منها طوال حياته، والروح البشرية الوحيدة التي يستمد منها طاقته حتى في

أظلم أوقاته.

يسمع صوت رئيسه في العمل في رأسه وهو يوبخه فينهار، تتردد الكلمات في عقله كسكرات الموت، خناجر حادة لا يمكن تحاشيها، يومها وقف أمامه وقلة الحيلة تملأ أوصاله، نظر له مديره وقال:

- أنا غلطان إني اعتمدت على واحد زيك يا داوود! مين يا ابني واسطتك اللي بليتني بيك!!

- يا فندم صدقني أنا ماقصرتش في أي حاجة!

- اعتبر نفسك في إجازة يا أستاذ لحد ما نشوف هنعمل مع جنابك إيه!

تمنى لو كان قد مات أثناء تأدية عمله مثل صديقه بسيوني الذي فقد حياته أثناء مهمة كان يقوم بها منذ فترة في فندق يدعى فندق القلب السعيد، يتمنى لو كان قد ترك عمله بشكل مشرف بسبب إصابة لا علاج لها، تمنى لو كان صاحب عاهة يفتخر بها أمام الناس، ولكن ها هو يجلس يرتدي بيجامته القطنية التي تشبه أيامه الرتيبة مؤخرًا ويتناول العشاء في بؤس، بينما رفقاؤه يقومون بأعمالهم على أتم وجه، شعرت زوجته إكليل بأنه قد أطال الجلوس في غرفة الطعام، فنادت عليه ليجلس معها:

- داوود حبيبي، كل ده بتعمل سندوتش؟

أزاح داوود السكين بعيدًا في تلجلج كطفل أوشك

أهله على الإمساك به قبل الإقدام على خطأ جسيم، وقال بصوت مهموم:

- خلاص جاي اهو يا حبيبتي، أجيبلك حاجة معايا؟

- لا أنا تمام، تعالى اتفرج معايا على الفيلم بس.

- حقيقي ماليش نفس يا إكليل، مافيش حاجة بقى ليها معنى.

نظرت إكليل له في شفقة، تعلم كم يحب زوجها عمله وتعلم أن القضية التي يعمل عليها هي الأصعب لأنها ببساطة لم ترَه في تلك الحالة النفسية السيئة من قبل، أغلقت التلفاز وقالت وهي تضمه إلى صدرها:

- كفاية إنى عارفة قد إيه انت تعبت وعملت اللي عليك في القضية دي بالذات! هون على نفسك!

نظر إليها بعين دامعة وقال:

- كان نفسي هما كمان يعرفوا، كان نفسي أحس إن التعب متشاف ولو لمرة!

- في يوم من الأيام هيفهموا، صدقني.

انسابت دمعة من عينيه وهو يقول في أسى:

- عارفة، وجع الإنسان اللي عامل اللي عليه يبقى أصعب من اللي كان من أول لحظة مش مهتم، أنا عمري ما قصرت!

أنهى جملته وبدأ في النحيب كطفلٍ تائه بين أحضان زوجته، يشعر بالأمان بين ذراعيها ويشعر في قرارة نفسه أن ما حدث ليس النهاية، هناك ما يجب أن يفعله ليسترد كرامته وحقه مرة أخرى.

***

في الزنزانة، كان تامر ينصت لرحيم في اهتمام، يدون كل كلمة يقولها:

- القتل زيه زي أي حاجة في الدنيا يا أستاذ تامر، بنبقى عندنا فضول لشيء معين، الفضول بيتحول لشغف، الشغف بيتحول لعادة، والعادة لما بتتكرر بتفقد بريقها، المرة اللي جاية لما تروح المقابر بص على وش التُربي، هتشوف قد إيه شغلانة مرعبة زي دي بقت بالنسبة له كأنه بيعمل كوباية شاي!

- مع الوقت حسيت بكده؟

- أنا ماكنتش تُربي، أنا كنت حاوي بيقطع رقاب أي أفعى تستاهل الموت!

انتهت دقائق المقابلة سريعًا بين حاوي وتامر، استأذن تامر بعدما اتفق معه على استكمال القصة فيما بعد، اقترب تامر من باب الغرفة وهو يلملم أوراقه، وقبل أن يغادر قال له حاوي:

- بالمناسبة يا أستاذ تامر، أنا مش هحكيلك ولا هعمل

معاك الحوار ده عشان حياتك بايظة ولا عشان مراتك سابتك وكل الكلام ده، أنا بس حبيت الفكرة، بس زي ما هحكيلك حكايتي هيبقى فيه حاجة هتقدمها لي في المقابل!

لم يتردد تامر لحظة عن الإجابة، فقط قال ببساطة:

- أنا موافق على أي حاجة!

سكت للحظات، وكأنه كان ينتظر تلك الإجابة لسبب لا يعلمه أحد سواه، ابتسم حاوي في مكرٍ وقال:

- يبقى اتفقنا!

خرج تامر من الغرفة بصحبة أحد العساكر ليعود مرة أخرى إلى مدير السجن، والذي سأله مبتسمًا في فضول:

- حلوة دماغه، صح؟

هز رأسه موافقًا، ثم أجابه بسعادة يتخللها تقدير لعقل حاوي:

- كلامه قليل، بس وراه فلسفة شوية، أقدر أقعد معاه تاني امتى؟

- خليني أسأله الأول لو حابب إنه يعمل ده تاني، واستنى مني تليفون، أنا خلاص معايا الكارت بتاعك.. بس ما دام اتكلم معاك يبقى اعتبر دي إشارة كويسة. ماتنساش تسلملي على أستاذ صفوت!

شكره تامر ليعود بعدها إلى سيارته المتهالكة في سعادة يجمع أوراقه المبعثرة وبنطاله الذي أصبح كشوال ضخم يحشر أعضاءه بداخله بأعجوبة، وصل إلى شارعه أخيرًا وهو لا يرى أمامه سوى صورة هذا الحاوي.

دلف إلى الحارة التي أصبح يسكن فيها بعدما باع شقته ليستبدلها بشقة متناهية الصغر في هذا المكان الحقير، اقترب من بقالة عم صبري القابعة أسفل منزله، ينبعث من الداخل صوت أم كلثوم وهي تقول في تحدٍ حزين:

"وهات لي قلب لا داب ولا حب..

ولا انجرح ولا شاف حرمان".

ابتسم تامر في أسى، ألقى على عم صبري السلام وهو يتأمل المنتجات المفروشة في الكشك بعيون جائعة ثم سأله على استحياء:

- أنا بقى عليا كام ليك لحد دلوقتي يا عم صبري؟

أخرج صبري دفترًا قديمًا من جانبه، أمعن النظر فيه ثم قال لتامر مبتسمًا:

- كلام فاضي يا حبيبي، ماتشغلش بالك، ربك هيعدلها قريب أنا متأكد.

- والله ما عارف أقولك إيه يا راجل يا طيب، وشي منك في الأرض، بس خلاص ربنا هيفرجها قريب، المقال اللي بعمله ده أول ما يكمل هيدخلي مبلغ محترم،

هدلعك.

ابتسم العجوز في ودٍ وهو يضع بعض الأجبان والعصائر في شنطة بلاستيكية ويناولها لتامر قائلًا:

- وآدي يا سيدي العشا، عشان لما تدلعني تبقى تدلعني بضمير.

شكره تامر وصعد بعدها لمنزله وهو يشعر أنه يحمل كنزًا ثمينًا بين يديه، ألقى بجسده النحيل على تلك الأريكة المتهالكة، وفي نهمٍ شرع في التهام لقيمات الطعام سريعًا وهو يرتب أوراقه في سعادة، لا يتمنى سوى أن يخرج من حاوي بقصة مثيرة تسمح له أن يكتب مقالًا أو مجموعة مقالات تعود عليه بمبلغ مالي جيد كي يسدد ديونه المتراكمة ويسترد كرامته الضائعة، استجمع قوته بعدما تناول طعامه، قام بالبحث على اللابتوب الخاص به عن (رحيم الحاوي)، أغلب الصور التي ظهرت له كانت من حفلات توقيع مختلفة له في معارض كتاب مصرية ودولية، قام بحفظ بعض تلك الصور ليستخدمها فيما بعد في بحثه.

أغلق جهازه وأطفأ إضاءة الشقة، سحب كرسيًا خشبيًا باتجاه النافذة، قام بفتح تطبيق الأغاني على هاتفه الذي لم يجدد اشتراكه منذ زمن، وبدأ عادته اليومية، مراقبة الجيران ومعرفة أسرارهم. يراقب من وراء ستائر شقته ساكني المنطقة في تلذذ شيطاني مريض، مستمتعًا

بسيجارته وبتلك الأغنية التي أصبح لا يتوقف عن سماعها.

"يا وردة ماتدبليش..

خلاص أنا عايز أعيش..

سيبيني بس أقوى وهبقى أحسن من القديم".

لم يكن تامر شخصًا سويًا تمامًا كما يظهر لكل من يعرفه، كان يحمل خلف تلك الابتسامة الطيبة شخصًا ساخطًا على الحياة بأكملها، شخصًا ناقمًا على كل ما عاشه من خذلان ويأس، شخصًا يراقب مشاجرات جيرانه فيشعر بالاستمتاع لكونه ليس الوحيد الذي يشعر بالحزن في هذا العالم، يراقب جاراته أثناء استحمامهن فيشعر بالانتصار أمام نسخته الوحيدة الممقوتة، ليعود بعدها إلى فراشه الصغير داعيًا الله أن يحدث أي شيء يغير حياته ولو للحظات.

تذكر يوم قبوله في كلية الإعلام، كلام والده الذي كان يحلم أن يرى تامر مذيعًا هامًا أو مخرجًا مرموقًا في التلفزيون.

- "بلاش حكاية الصحافة دي يا تامر، شغلانة صعبة ومش هتأكلك عيش يا ابني!".

لماذا لا ندرك أن بعض النصائح قد تغير حياتنا بالفعل؟ لماذا لا نفهم الفرق بين من ينصحنا حبًا ومن ينصحنا مكرًا؟

حاول الأب كثيرًا أن ينصحه، إلا أنه اتبع شغفه رغم

كل شيء، وها هو يدفع ثمن شغف لم يكسب منه سوى الخسارة حتى الآن، لا يعلم تحديدًا السبب، أهوَ صحفي غير موهوب أم لأنه شخص قليل الحظ؟!

***

في مساء نفس اليوم كان إياد أمير، النجم الأشهر في الوطن العربي خلال السنوات الماضية، في طريقة للعرض الخاص لفيلمه الجديد (الانتقام الأخير)، اشتهر إياد بوسامته وموهبته الرفيعة إلا أنه اشتهر أيضًا بعلاقاته النسائية التي لا تنتهي، سواء من داخل الوسط الفني أو من خارجه، أصبح نجم الشاشة الأول خصوصًا بعد ابتعاد منافسه الأول "حاتم نور" عن الأضواء منذ فترة، لم تتوقف الاتصالات والرسائل طوال مشواره بالسيارة إلى مكان السينما بالتجمع الخامس، إلا أنه لم يهتم بالرد على أي اتصال منهم، فور وصوله تهافت عليه العشرات من الصحفيين يصوبون هواتفهم المحمولة وكاميراتهم في وجهه، يبتسم في سحر ودلال، يشير بيده يحيي الجماهير، يلتقط السيلفي مع المعجبين، الجميع يتدافع عليه حتى مع وجود عشرات من الحراس الشخصيين حوله، شعر بوخزةٍ خفيفة في ذراعه الأيمن إلا أنه لم يكترث كثيرًا.

دلف إلى القاعة وسط صراخ المعجبات، جلس بجانب مخرج الفيلم وبطلته، بدأ الفيلم إلا أنه لم يكن منتبهًا بشكلٍ جيد، بدأ يُصاب بدوار خفيف، استأذن منهم بصوت خافت للذهاب إلى دورة المياه ليغسل وجهه، وقف

حارسه الشخصي أمام باب دخول الحمام من الخارج كي لا يدخل أحد معه، قام بخلع معطفه ليتفقد مكان الألم، أثر لتجمع دموي وكأنه قد حصل على تطعيم للتو، بدأ يغسل وجهه إلا أن الدوار كان يزداد بشكل مخيف، ومن داخل أحد الحمامات خرج إليه شخص يرتدي قناع كلب أسود، التفت إليه إياد في خوف، وقبل أن ينطق بحرف واحد وضع المقنع يده فوق فمه وقال بصوت خافت:

- لو نطقت بكلمة هتموت بالبطيء، خليها تبقى موتة سريعة أحسن!

من وراء فم مكتوم خرجت كلماته بصعوبة:

- انت مين؟

- أنا ساعة الحساب، ميزان العدل يا إياد.

- أنا عملتلك ايه؟

قالها إياد في خوف

- زيك زي كل اللي ماتوا قبلك! واضح إن الغلطات لما بتكتر بتتشاف على إنها شيء عادي وبتتنسي.

أخرج المقنع ساطورًا ضخمًا من حقيبة ظهره، وبدأ في تقطيع إياد بجزار متمرس، وضع يده في دمائه وكتب على المرآة:

"التعابين لازم تتقطع من راسها.. مبروك الفيلم". ليغادر بعدها من نافذة الحمام الصغيرة التي دخل منها تاركًا نجم

النجوم في مشهده الأخير لفيلم لن يرى النور سوى في صفحات أخبار الحوادث.

***

الأيام تمر في تلكؤ كبيرقة حديثة الولادة على تامر وهو في انتظار مكالمة العقيد سامي كأعوام لا تنتهي بين جدران من الثلج والنار، يمسك بهاتفه بين اللحظة والأخرى ليتأكد أنه لم يتلقَ أي اتصال، الديون تزيد، الشغف يقل ورغبته في الحياة تتكمش يومًا بعد يوم.

وفي اليوم الرابع، أتاه المراد، مكالمة هاتفية غيرت مزاجه تمامًا، اتصل به سامي بك حاملًا إليه الخبر السعيد.

- سامحني لو اتأخرت عليك في المكالمة، رحيم موافق يكمل معاك المقال بتاعك، وهيخلي الحوار في زنزانته كمان.

لم يفهم تامر تحديدًا معنى أن الحوار سيكون في زنزانته، إلا أنه شكره وبدأ في الاستعداد لليوم التالي في سعادة ولهفة، وفي الموعد المحدد دلف تامر إلى زنزانة رحيم كحبيب يقابل حبيبته للمرة الأولى، والتي كانت أشبه بمتحف للزواحف أكثر من كونها غرفة سجين، الغرفة كانت كبيرة نسبيًا لما قارنه تامر في خياله بما يراه الآن وبما تخليه من الأفلام والمسلسلات لشكل الزنزانة المطبوع في خياله، سرير وحيد لا يشاركه في غرفته أحد، غرفة فردية VIP.

مكان الفراش الآخر كانت تقبع بدلًا منه مكتبة مكونة

من أربعة أرفف، الأول والثاني وضع عليهم ما يقرب من خمسة أحواض زجاجية بداخل كل منها ثعبان بشكل وحجم مختلف، الرف الثالث كان عليه العشرات من الكتب والروايات، والرف الأخير كان يحتوي على متعلقاته الشخصية كبعض الملابس، فرشاة أسنان والعديد من الأوراق والألوان. تراجع تامر قليلًا بعدما رأى الثعابين، إلا أن حاوي ابتسم له وأخبره أنها مسالمة ولن تؤذيه.

بداخل الغرفة كرسيين متوسطي الحجم، أحدهما مثبت في الأرض، جلس عليه رحيم مكبل الأيدي يبتسم لتامر في هدوء ترحيبًا بقدومه، جلس الأخير على الكرسي المواجه له وقال مبتسمًا:

- الأوضة حقيقي جميلة، شكلك بتحب التعابين أوي.. والروايات طبعًا.

ابتسم حاوي على أثر الكلمة وقال:

- أول مرة حد يقول على زنزانتي أوضة! أشكرك، شكلك انت اللي مش بتحب التعابين، ملامحك فيها خوف!

- بصراحة آه، بخاف منهم، مرة وأنا صغير تعبان كان هيعضني بس ربنا ستر.

- التعابين كائنات راقية جدًا، مالهاش في جر الشكل، مش هتأذيك إلا لو حست بخطر منك. أنا عمري حكيتلك ليه اتسميت حاوي؟

- بصراحة لأ.

- هقولك بعدين. المهم، حابب تعرف إيه؟

لم ترُقه الإجابة، إلا أنه تغاضى عنها وقال في استسلام:

- الإنسان يحب يعرف في الأول عن البدايات. أستاذ رحيم، امتى الإنسان العادي ممكن يتحول لقاتل؟

أخذ نفسًا عميقًا، ساحبًا فيه بحرًا من الذكريات، وقال في هدوء وهو يزفر الهواء من فمه.

- القتل عامل زي الزقة، بيكون جواك إحساس مخيف، طاقة انت مش عارف إيه مصدرها، كل اللي بتبقى محتاجه حد يديك زقة.

***

"أكثر شيء مخيف هو الخوف ذاته"

انتبه يا عزيزي، كونك قاتلًا لا ينفي ماهيتك كبشر له كل الحقوق في الحياة التعيسة، كونك قاتلًا لا ينفي كونك إنسانًا من لحم ودم له الحق في أن يعيش كسائر البشر المناكيد، كونك قاتلًا لا يحرمك من الاستمتاع بالقليل من السعادة في أيامك القليلة على هذا الكوكب اللعين، أنت لست المذنب الوحيد في هذا الكون يا عزيزي، لقد سبقك المئات من أبناء شغفك، جاك السفاح، هارولد شيبمان، هنري هولمز وغيرهم من المبدعين...

تلذذ يا عزيزي بنظرات الرعب في أعين من يستحق قبل أن تغمض تلك العيون للمرة الأخيرة، استمتع وافتخر وأنت تضع بيديك نقطة النهاية لقصصهم الدنيئة ليتخلص العالم من رجسهم.. أنت لست بقاتلٍ يا عزيزي، أنت بطل مبدع، إلا أن إبداعك لم يفهمه العالم بعد!

الجريمة الأولى

لكل شيء في الحياة مرة أولى..

قبلة أولى..

لهفة أولى..

أو جريمة أولى.

متى تحديدًا تتحول ماهية الإنسان إلى عكس غريزته البشرية الطبيعية؟ متى يتم إشعال فتيل الفوضى ويخرج من رأس الصنبور قطرات من الدماء العفنة بدلًا من المياه المملة التقليدية؟ هي لحظة غير معلومة، لم يستطع العلماء التعرف على تلك اللحظة، لأنها ببساطة لحظة غير مدروسة حتى وإن كان لها مترتبات عديدة.

القاهرة - ١٩٩٨

لم أحب منزلي أبدًا رغم أن الجميع كان يحسدني عليه، فيلا ضخمة في حي هادئ، العشرات من الغرف، وحديقة عملاقة، إلا أني لم أرَ السعادة في هذا المنزل أبدًا.

في غرفتي الصغيرة، والتي تشبه الزنزانة كثيرًا التي أعيش فيها الآن، جلست ضامًا قدمي بين ذراعي متشرنقًا على

نفسي كما اعتدت دائمًا، طفل في الحادية عشر، طفل لا يشبه باقي الأطفال، رحيم فضل لاشين، كانت اهتماماتي تختلف بعض الشيء عن مَن هم في نفس سِنّي، كنت أجمع المقالات والأخبار التي تكتبها الجرائد والمجلات عن القتلة المتسلسلين، كنت أراهم أبطالًا خارقين، لا أهتم بأفلام الكارتون، لكني كنت مولعًا بأفلام جيمس بوند وهيتشكوك، في هذا اليوم الذي لن أنساه أبدًا كنت جالسًا أقرأ رواية بوليسية بيدي اليمنى وبيدي اليسرى أمسك بسماعة هاتف المنزل متحدثًا مع صديقي المقرب تيمور وقتها، بصوتٍ خفيض حتى لا يسمعني أبي أو كي لا أزعجه.

- هتلعب معانا كورة النهاردة؟

قالها تيمور في نفاد صبر وكأنه يعرف إجابتي قبل أن أقول شيئًا، فأجبته على استحياء:

- هستأذن بابا وأقولك، المهم ما نتأخرش.

ازدادت نبرة الغضب في صوته وقال:

- مش هتكبر بقى يا عم رحيم؟

إلا أنني أجبته في هدوء لا بديل له في حالتي:

- انت عارف بابا، عمومًا هسأله وأقولك.

بخطواتٍ متلجلجة، دلفت لغرفة والدي الذي كان منهمكًا في كتاب ضخم يقرؤه فوق مقعده الخشبي الوثير،

الذي استقرت فوقه رأس ثور ضخم مخنّط، كنت أكره تلك الرأس وأخاف منها، أتخيل دومًا أن الثور سيتحرك فجأة، أكره غرفة أبي بأكملها، كان الوالد رجل ضخم البنية، أصلع الرأس، يرتدي روب أسود متناسق مع هيئته المهيبة، ملامحه جامدة لا مشاعر تظهر عليها كقناع (بانتومايم)، قناع يليق بشخصيته المهيبة، سيادة المستشار فضل بك لاشين.

فضل لاشين وحده صاحب الحق في وضع قوانين منزلنا الحزين، حاكم مستبد وأنا المحكوم الوحيد، قوانينه لا تتغير منذ أن كنت طفلًا صغيرًا، ممنوع الضحك بصوت عالٍ، ممنوع البقاء خارج المنزل بعد الساعة التاسعة، ممنوع الاقتراب من قبو المنزل تحت أي ظرف كان، ممنوع التحدث عن أمي لأي سبب، قوانين يرددها دومًا ولم أكن سوى محكوم مطيع، لا يقول سوى نعم، عسى أن أتحرر من هذا الحكم المستبد في يوم ما.

تخنحت في خجل فنظر لي أبي من خلف نظارته ينتظر أن أقول ما أريد، ابتلعت ريقي بصعوبة وقلت في أدب:

- بابا، أستأذن حضرتك أروح ألعب كورة مع صحابي.

- خلصت مذاكرة؟

- آه خلصت كل اللي ورايا، أنزل؟

نظر الأب في ساعته لثوانٍ، ثم قال:

- ساعتين يا رحيم، ساعتين ودقيقة هتشوف مني الوش التاني!

أعلم تمامًا ما يعنيه بـ(الوش التاني)، ولم أكن أحب رؤيته أبدًا.

- حاضر، شكرًا يا بابا.

لم أكن أحب أن أُجادله أبدًا، كان عنيفًا وكنت أتفادى هذا العنف بكل السبل الممكنة وبكل الطرق، بعض الأشخاص في تلك الحياة يجب أن نعلم تحديدًا متى يجب أن نتفاداهم ومتى يجب أن نبتعد عن شرورهم حتى نعيش في سلام.

كان الأستاذ فضل والدي رجل صارم، دقيق، متزمت وعنيف في بعض الأحيان، كان يرى أن التربية السليمة هي التربية التي يتخللها الصرامة والانضباط المبالغ فيه، كان يرى أن أسلم طريقة لتربيتي بعد وفاة أمي هي أن يجعلني أسير على قوانينه التي لا جدال فيها، لم أكن أكرهه لكونه عائلتي الوحيدة إلا أنني كنت أخاف حتى من رائحته وصوت أنفاسه.

ارتديت يومها ملابسي في سعادة وكأني أرتدي ملابس العيد الذي لم أعد أبتاعها منذ وفاة أمي، بعد وفاتها تبدلت كل ألوان العالم ليحل اللون الأسود كضيف ثقيل ودائم على حياتي، ضيف غير مرغوب فيه، إلا أنني مرغم عليه مثل أشياء كثيرة في حياتي، مرغم على تحمل المسؤولية في

سن صغير وأنا بداخلي أرغب في أن أعيش حياتي كأي طفل في سني، أرغب في أن أُحدث الأخطاء وأسمع كلمة (معلش) بدلًا من السباب واللكمات، ولكنني أُرغمت على أن أكبر قبل الأوان، كقطعة لحم مجمدة رُميت فوق نار عالية الاشتعال، ليتم وضعي بعد عدة دقائق في طبق التقديم للعالم، تبدو لك من الخارج كاملة النضج، إلا أنك بمجرد قطعها ستجدها نيئة تمامًا غير صالحة للمضغ ولا لأي شيء آخر.

في النادي، كان ينتظرني همًّا من نوع آخر، نوع يدعى النظرات الثاقبة السخيفة من تيمور وباقي الأصدقاء، اعتدت أن أسمع عبارات مؤذية مثل (بالراحة على رحيم في اللعب يا ولاد عشان بابا بيزعق) أو (الحقي العبي بسرعة يا سندريلا قبل ما بابا يرفع الشبشب)، كنت أقابل تلك العبارات بالابتسام وأنا من داخلي أحمل وجعًا يصعب البوح به، إلا أنني لم أرِد أن أكبر وحيدًا، كنت أخبر نفسي أن أصدقاء متنمرون أفضل من أن أكون بلا أصدقاء.

كانت ليلة جميلة رغم كل شيء، أحرزت خلالها هدفين، تيمور يشجعني بصوت عالٍ، وناجي يرمقني بنظرات ساخطة، أنظر إلى ساعتي بين اللحظة والأخرى لمراقبة الوقت حتى لا يفوتني موعد والدي، وفي تمام الثامنة والنصف استأذنتهم لأذهب وأغير ملابسي حتى أكون في المنزل تمام التاسعة، دلفت إلى غرفة تغيير الملابس،

ارتديت ملابسي في عجالة، إلا أنني وأنا أفتح الباب كي أخرج وجدت أن الباب مغلقًا من الخارج، حاولت بقوة أكثر حتى أتاني صوت أحد الأصدقاء يدعى ناجي وهو يقول ضاحكًا:

- وريني شطارتك بقى يا حلو، حريف في فتح البيبان زي الكورة ولا إيه؟

أكره الشعور بالحبسة، وأكره ناجي بلا شك!

- ناجي، افتح من فضلك، لازم أمشي حالًا.

- مش فاتح غير لما توريني الأول، وبعدين مستعجل ليه؟ بابا هيضربك؟

أكره مزاحه السخيف وأكره استهزاءه بحياتي.

- مابحبش الهزار ده!! افتح يا ناجي لو سمحت..

- اتحايل عليا شوية كمان طيب.

كان سخيفًا، لزجًا، يشبه الحلزون في هيئته وملمسه، رأسه طويل وعينيه متباعدتان، يسيل اللعاب من فمه حينما يتكلم فيمسحه بيده بشكل مقزز، استحضرت شكله وأنا محبوس فأُصبت بغضب أكبر، بدأت في الخبط بيدي بلا توقف حتى فتح أخيرًا وهو لا يكف عن الضحك في استفزاز، أمسكت بجسده بكل قوتي وألقيته داخل الغرفة الصغيرة فسقط أرضًا، لم يتوقف عن الضحك بشكل يغيظ.

- ماتعيطيش يا حلوة!

قالها وهو لا يتوقف عن الضحك، استحضرت مشهد أبي وهو يضربني ويقول "اوعى أشوفك بتعيط!". نظرت حولي بلا تفكير فوجدت مضخة الهواء الحديدية التي نستخدمها في نفخ الكرات، قابعة في أحد الأركان تنتظرني، أمسكتها كرمح وبكل ما أتيت من قوة جريت عليه وهو يقوم من وقعته راشقًا قلبه بالرأس المدببة للمنفاخ لتقتحم الإبرة الحادة جسده الهلامي ليقع مرة أخرى، ولكن تلك المرة جثة هامدة يتدفق الدماء منها كنافورة صغيرة تحت الإنشاء.

تجلطت الدماء في شرايني، أُصبت بدوار بحر مفاجئ على متن مركب الموت التي أخطوها لأول مرة. نعم، أعشق الروايات البوليسية، نعم، تمنيت كثيرًا أن أعيش بعض المغامرة في حياتي تمامًا كأفلام هيتشكوك، إلا أنني في تلك اللحظة لم أتمنَّ سوى أن أعود إلى البيت، تمنيت وقتها لو لم أحب كرة القدم، بدأت أنفاسي تتعالى، المخيف بالنسبة لي لم يكن جثته، بل مشهد الدم هو ما كان مقززًا، أدركت في تلك اللحظة أنني مصاب بالهيموفوبيا، بدأت أشعر بصعوبة في التنفس، شعور بالغثيان مصحوبًا بسرعة في ضربات القلب، أعراض لازمتني لسنوات طويلة في حياتي كقاتل متسلسل.

تحاملت على نفسي بصعوبة، أغلقت الباب من الداخل حتى لا أتفاجأ بأي ضيف غير مرغوب فيه مع جثتي الأولى، لم أجد حولي سوى حقيبة سفر ضخمة كان

يستخدمها المدرب القديم في نقل الكرات من وإلى الملعب، وكأن القدر وحده من وضع تلك الحقيبة في هذا المكان، ألقيت بجسد ناجي في تلك الحقيبة، وضعتها في أحد الأركان وشرعت في تنظيف الفوضى، تعلمت الدرس الأول كقاتل في تلك اللحظة، القاتل يجب أن يكون نظيفًا وأن يهتم بنظافة كل بقعة دم من ضحيته وإلا كان العقاب وخيمًا. أفقت من صدمتي على صوت تيور وهو يطرق باب الحمام من الخارج، فتحت له وأنا أتصبّب عرقًا، فتفاجأ لرؤيتي وسأل في قلق حقيقي:

- انت مش كده اتأخرت على ميعاد باباك؟

نظرت إلى ساعتي، كان العقرب يبتسم في تحدٍ وهو يشير إلى العاشرة، تيقنت أنني أمضيت ساعة تقريبًا أو أكثر أُنفذ مهمتي، أخبرته بأن أبي قادم ليأخذني وأنني في انتظاره، هز رأسه بلا اكتراث ثم سألني قبل أن يرحل:

- شوفت ناجي؟ كان مفروض هيروح معايا..

- لا مافيش حد لبس هدومه هنا غيري.

هز رأسه مرة أخرى ورحل ليبحث عن صديقه النذل الذي رحل دون أن يخبره في مكان آخر، تأكدت من رحيله وبدأت رحلتي في نقل الحقيبة الضخمة لتلك المنطقة المحظورة في النادي والتي يطلق عليها الجميع اسم (الخرابة)، كانت الخرابة بقعة زراعية في مكانٍ ناء بالنادي، لا يدخلها أحد ولا يهتم أحد بإصلاحها أو

تأهيلها، وكأن من تركها على تلك الحال كان يعلم أنني في يوم من الأيام سأحتاج لمكان كهذا كي أدفن ضحيتي الأولى. كان كل شيء سلسًا في تلك الليلة، باستثناء أني تحولت من رحيم الطفل العادي إلى الطفل القاتل.

كان المشهد سرياليًا بشكل كبير، طفل في الحادية عشر يرتدي ملابس رياضية يجر في يده حقيبة ضخمة تحمل بداخلها جثة صديق كان يشاركه ملعب كرة القدم منذ دقائق، تذكرت في تلك اللحظة ما رواه أبي لي عن يوم رحيل أمي، سرده لمنظر أمي وهي تترك منزلنا حاملة معها حقيبة أكبر منها، كانت تصيح في وجه أبي قبل رحيلها وتخبره كم تكرهه، تخبره أن الحياة معه مستحيلة، وأن الموت أفضل لديها من أن تعيش مع عجوز مثله، وبالفعل ماتت المسكينة بعد رحيلها بعدة أشهر، تاركة خلفها رجلًا غاضبًا طوال الوقت وطفلًا بائسًا، طفل لا تتوقف رأسه عن التفكير، يفرز عقله عددًا لا بأس به من الأسئلة، ماذا سيفعل الأب بعد عودتي متأخرًا؟ ماذا سيحدث إن تم كشف جريمتي؟ هل سأُعدم؟ هل سيعدمني أبي قبل القانون؟ هل سأُحرم من رؤية أصدقائي؟ هل ستكرهني ليان؟

أغمضت عيني للحظات لأخرس أصوات رأسي. استأذنت من قدمي كي تسرع قليلًا، كانت الساعة قد قاربت من الحادية عشر، النادي خالٍ نسبيًا، تسللت إلى غرفة عمال النظافة، سحبت جاروفًا حديديًا بيدٍ مرتعشة

وعقل ما زال لا يستوعب، وشرعت في الحفر لأصنع أكبر حفرة صنعتها في يوم من الأيام، تذكرت أمي مرة أخرى وأنا أحفر، عدت بالزمن لأعوام مضت، طفل في الرابعة يحفر بكل قوته وسعادته على الشاطئ في الإسكندرية، كم كانت تعشق شاطئ عايدة بالإسكندرية، أركض إلى البحر حاملًا جردلًا صغيرًا أملؤه بالماء في سعادة فتسقط نصف حمولته وأنا في طريق عودتي إليها، أسكب الماء في الحفرة وأنا أضحك في براءة وأشرع في استكمال الحفر معها.

الساعة تشير إلى الثانية عشر، والحفرة تشير بأنها أصبحت جاهزة لاستقبال ناجي، تأكدت أن لا أحد يراني، ثم ألقيت بمحتوى الحقيبة لمثواه الأخير، أتممت مهمتي بنجاح، بخطوات متثاقلة اتجهت في طريقي إلى الخروج، استوقفني عم حافظ عامل الأمن وسألني في قلق:

- بتعمل إيه لحد دلوقتي في النادي يا رحيم؟

- كنت.. كنت مستني بابا وخلاص وصل، بعد إذنك يا عم حافظ..

نظر لي حافظ في شك إلا أنه قال في عدم اهتمام وهو يرتشف بعضًا من الشاي الذي يحمله في يده:

- ماشي.. ابقى سلم لي على سيادة المستشار.

عدت إلى المنزل والخوف يملك أوصالي، كان سيادة المستشار أبي، ما زال مستيقظًا رغم أنه عدو الليل والسهر،

جالسًا في مقعده المفضل، تتحرك عيناه بيني وبين ساعة الحائط العتيقة، قام من مكانه في ثقل مقتربًا مني كملاك الموت في هدوء وتمهل، وبنفس الهدوء خلع حزامه وشرع في تمزيق جسدي النحيل دون أن ينطق بحرف واحد، أتحمل الضربات دون أن أصرخ ولا أفكر سوى في هيئة ناجي والأتربة والرمال تغطي وجهه.

- فضل لاشين كلمته واحدة! ده عقابك عشان تبقى تفتكر مين اللي كلامه بيمشي في البيت ده يا رحيم.

دلفت بعدها إلى غرفتي والألم يتملك من أوصالي بأكملها، لا أستطيع النوم على ظهري من شدة الوجع، أتحسس جسدي فأتأوه في صمت، إلا أن أكثر ما كان يسيطر على شعوري في تلك اللحظة كان هذا الإحساس العجيب بأن يدي ما زالت ملطخة بدماء ناجي، ظللت طوال الليل في رحلات متكررة إلى دورة المياه، لا أفعل شيئًا سوى غسل يدي كالمجنون مرارًا وتكرارًا، ولكني كلما نظرت لكفي أرى بقع الدم.

عرفت فيما بعد أن هذا الشعور الذي ظل يصاحبني دومًا يسمى تأثير ليدي ماكبث، وهو هذا الشعور الذي يأتي مصاحبًا للشعور بالخزي بعد ارتكاب فعل مشين أو شيء قذر تمامًا كالذي اقترفته منذ ساعات قليلة، لم أستطع أن أتحمل هذا الشعور الكابوسي الذي اجتاحني. تعثرت نحو الحمام مرة أخرى، حيث كانت المياه المتدفقة تنهمر بصوت طنين يغطي صرخاتي الصامتة وصوت

ضحكات ناجي في رأسي. شغلت صنبور الماء بقوة، أفرك يدي بشكل متوحش، أحاول بكل قوتي التخلص من هذا الشعور الدنيء.

عندما انتهيت من غسل يدي، خرجت من الحمام وقد تلاشت البقع. ولكن ظل هذا السؤال يدور في عقلي، هل سأكون قادرًا على التخلص من هذا الشعور، أم سأظل رهينة لهذا الأثر اللعين؟ شعرت أن غسل يدي غير كافٍ، وقفت تحت الدش، وأنا أدع الماء يسيل على جسدي، وتأملت في الأمل الخافت الذي قد يأتي يومًا ما ليطهرني من هذا التأثير اللعين ليدي ماكبث.

ولهذا أصبحت يدي على مدار سنوات حياتي الأنظف دائمًا رغم أنها لم تقترب من النظافة في يوم من الأيام.

***

كان تامر منهمكًا في الكتابة، بدا عليه التأثر بما يحكيه رحيم، لم يقاطعه ولو لمرة واحدة، منتبهًا كمن يتابع فيلمًا جديدًا لفنانه المفضل لأول مرة، أغلق دفتره ثم سأله مبتسمًا في شفقة:

- ماكانش فيه فرصة تتفاهم مع الوالد على طريقة التعامل؟

ابتسم في أسى وأجابه:

- تقدر تتفاهم مع قطر توربيني؟ تقف قدامه وتتكلم معاه

بالعقل؟

اقترب أحد الجنود من باب الزنزانة، وقال بصوت آمر:

- الوقت خلص يا أستاذ!

رحل تامر متجهًا إلى منزله وهو يحمل بين ضلوعه الكثير من المشاعر المختلطة، يتذكر جيدًا ما قاله مدير السجن في مقابلته الأولى مع حاوي "أنا لازم أنبهك إن الحاوي أذكى مما تتخيل، وأخطر مما تتخيل، ماتصدقش كل اللي يتقالك، وبلاش تخليه يكسبك في صفه"، إلا أنه لم يشعر للحظة أن رواية رحيم قد تكون كاذبة، بل إنه بخبرته الصحفية شعر أنه أمام إنسان صادق، قاتل ربما، ولكنه صادق تمامًا فيما يقول.

فتح تامر باب شقته البائسة، ألقى بحقيبته في إرهاق فوق الطاولة الخشبية، وقبل أن يغلق الباب خلفه وجد أمام الباب الأستاذ بديع صاحب العمارة يبتسم له ابتسامة صفراء مستفزة بأسنان أقرب إلى السواد في اتساخها، رائحته مزيج من السجائر الكليوباترا والبيرة الرخيصة التي يتغذى عليها كما يتغذى دود القز على أوراق التوت.

- إيه يا أستاذ تامر! برن عليك بقى لي يومين على المحمول وانت ناسيني خالص!

قال جملته وهو ما زال مبتسمًا إلا أن الغضب كان يتطاير من عينيه بشكل مخيف أقلق تامر.

- لا خالص يا أستاذ بديع، الشغل بس واخد كل وقتي، حقك عليا.

- ولا يهمك، كان الله في العون، بالنسبة للإيجار المتأخر يا غالي؟ الشهور عمالة تعد!

- ربنا فرجه قريب، إديني كام يوم وفيه مبلغ كويس هيوصلني.

زفر بديع في غضب، ثم قال بأسلوب ساخر:

- ونعم بالله، ده أنا حتى سمعت من عم صبري البقال إنك عمال تسحب منه بضاعة بلوشي! مش عيب على صحفي زيك يسكن ويأكل من غير ما يحاسب على حاجة؟

- عم صبري عارف ظروفي والراجل بصراحة دايمًا كريم معايا، وزي ما قولتلك أنا كام يوم وهدفعلك كل اللي عليا، ملهوش لازمة الكلام ده!

تعجب تامر شخصيًا من تلك النبرة القاطعة الغاضبة في صوته، النبرة التي جعلت بديع ينهي كلامه ويرحل دون أن يكمل فقرة السماجة المعتادة، جلس بعدها في فراشه متصلًا برئيس تحرير جريدة حديث الشعب، الأستاذ صفوت مديره، كان صفوت كرم من أشهر الصحفيين في مصر، قلمه صادم وعذب في آنٍ واحد، وبعد أن زهد الكآبة تم تعيينه رئيس تحرير الجريدة، يحبه تامر ويحترمه ويقدر مشواره الصحفي، إلا أنه كان يخشى مكالماته والتي دومًا ما تحمل قدر من التوبيخ.

- فين المفاجأة اللي قولتلي عليها يا تامر باشا؟

تنهد تامر بارتياح لكون المكالمة أتت في التوقيت الأفضل فقال بنبرة واثقة:

- جهز نفسك يا أستاذ صفوت، بكرة تقدر تنزل في الصفحة الأولى عنوان بالبنط العريض (تنفرد بنشر مذكرات رحيم الحاوي - أشهر القتلة المتسلسلين في الفترة الأخيرة.)

سكت صفوت للحظات ثم أعاد الاسم مرة أخرى بنبرة غير مستوعبة:

- رحيم الحاوي؟ عملتها إزاي يا قرد؟ ده أنا قولت مش هيرضى يقابلك!

ضحك تامر وقال:

- عيب عليك يا ريس، تلميذك! علاقاتك وسيطرتك هي السبب!

سأله صفوت مرة أخرى ليتأكد تمامًا مما لديه:

- مالي إيدك من الموضوع ده يا تامر ولا هتخلي رقبتي قد السمسمة؟

- يا أستاذي قولتلك عيب بقى خلاص، بس أنا ليا طلب صغير.

- عايز فلوس طبعًا، هنبدأ الطمع من دلوقتي؟

تنهد تامر في حزن وقال:

- والله ربنا يعلم الدنيا عندي بايظة قد إيه، أي مبلغ من تحت الحساب وشوف المبيعات الأيام اللي جاية هتبقى عاملة إزاي.

أرسل تامر ملخص اللقاء الأول مع حاوي للأستاذ صفوت، والذي بدأ في إسناد مهام الطبع لفريقه في الحال، طلب من المصمم أن يبحث له عن صورة حديثة لرحيم الحاوي وقت محاكمته وأخرى من إحدى حفلات توقيعه، وشرع في مباشرة تجهيز الموضوع بنفسه، وبالفعل وبعد ساعات قليلة، كانت صور رحيم والخبر الذي يعتلي رأس الجريدة بين كل الأيادي المتلهفة في كل مكان.

في وسط البلد وقف شاب عشريني يراقب الجرائد والمجلات المصطفين عند بائع الكتب، أمسك بالجريدة التي تحمل صورة الحاوي، قام بطيّها بعناية بعدما ناول البائع ثمن العدد، ثم جلس على أحد المقاهي يقرأ المقال في اهتمام وإعجاب لا مثيل لهما.

من بين الأيادي التي ابتاعت الجريدة كانت يد داوود، أصبح لا يواسيه شيء سوى الصحف وأكواب القهوة، جذبه العنوان، ليس لكونه العاشق الأول لأخبار المجرمين والقتلة المتسلسلين، بل لشعور داخلي ما يخبره بأن تلك السلسلة ستساعده بشكل ما على الإيقاع بالمجرم الخفي الذي يبحث عنه وبسببه تم إيقافه عن العمل، عاد داوود

برأسه إلى الوراء متذكرًا ما حدث في تلك الليلة المشؤومة.

تلقى داوود صباح هذا اليوم المشؤوم اتصالًا من قائده يخبره أن التحريات عن القاتل المجهول الذي أثار الرعب في كل مكان لأشهر عديدة أسفرت عن مكان قد يكون مخبأه ومقر عملياته، بدأ داوود تحركه إلى المكان المنشود مع فريقه، كان المكان عبارة عن قصر مهجور في إحدى الأراضي الزراعية النائية، مكان موحش ومخيف لم تعرف الحياة طريقًا إليه منذ سنوات طويلة، وصل داوود مترجلًا من السيارة في هدوء يمسك في يده مسدسه، يملي على فريقه خطة تحركهم بإشارات من يده، فور أن دخل إلى القصر انبعثت رائحة مقززة من الداخل، وفور أن أضاء نور القصر، كان المشهد الذي شاهده أشد بشاعة وقبحًا مما وصل منخاره.

في سقف القصر، تدلى ثلاثة رجال بأعمار مختلفة عراة الجسد ينتقص من كل واحد منهم جزء من جسده، الأول كانت قدميه الاثنين مبتورتين بشكل وحشي، وكأن وحشًا قام بانتزاعهما بأنيابه، الدماء تسيل منهما كقطرات مياه من صنبور صدئ، يتهافت عليهما الذباب في نهم. الثاني كان فاقدًا لذراعيه الاثنين، قابع في سكون، والأخير كان جلد وجهه منزوع بالكامل، كأنك ترى هيكلًا عظميًا أمامك، والأبشع من كل هذا أن بمجرد أن أشعل داوود إضاءة القصر اكتشف أن الثلاثة ما زالوا أحياء، لأول مرة في حياته المهنية تمنى لو كان قد عثر على

الضحايا أمواتًا، إلا أن المشهد كان شديد القسوة.

كان الأول يرتجف كطائر يصارع طلقة نارية طائشة، الثاني كان يئن في ذعر، يجول ببصره بين ذراعيه يحاول استيعاب ما حدث له، أما الأخير فلم تعد له ملامح كي يستشف منها داوود أي شيء، كل ما تمكن من فهمه من بين همهمات غير مفهومة كانت كلمة (اقتلني!).

بدأ في التحرك لسلم القصر ليبدأ عملية إنزالهم إلا أن رصاصة مدوية أطلقت في الهواء بجانب أذنيه أوقفته مكانه، وصوت آتٍ من مكان غير معلوم أيقظ حواسه وهو يقول:

- حمد الله على السلامة يا داوود باشا، لو اتحركت خطوة كمان سعادتك وكل اللي معاك هتموتوا، لو عايز تخرج من هنا مع رجالتك والمخطوفين تسمع الكلام!

كانت نبرته تحمل الكثير من التهديد والقوة، لم يكن لداوود سوى أن استجاب لكلمات الرجل وأنزل سلاحه أرضًا في هدوء وقال:

- قول طلباتك! المهم ماحدش من اللي معايا أو المخطوفين يجرالهم حاجة!

اقترب المتحدث والذي كان واقفًا في الدرج العلوي للقصر يرتدي قناعًا لرأس كلب أسود مخيف، وفي يده جهاز أسود صغير لم يستدل داوود على ماهيته لبُعده، حول رقبته استقر ثعبان ضخم، أشار المقنع إلى الثلاثة

المعلقين وقال:

- صدقني خسارة مجهودك ومجهود رجالتك يروحوا عشان التلاتة دول! كل واحد فيهم يستاهل اللي هو فيه!

- مافيش حد يستاهل يتعذب بالشكل ده! نزلهم وأوعدك ماحدش هيعملك حاجة!

ضحك المقنع وقال في هدوء:

- مش دايمًا الشرير بيبقى اللي لابس قناع يا باشا، كل واحد من التلاتة ارتكب ذنب وهو دلوقتي بياخد عقابه، عند الفراعنة لما الإنسان بيموت كان قلبه بيتحط على ميزان ماعت، وكل إنسان وقلبه! وأنا حاكمت وعدلت! الأولاني ده داس بنت صغيرة كانت بتلعب في الشارع بعربيته وسابها وجري، مافكرش يقف حتى يشوف جرالها إيه. البنت اتشلت، هتعيش حياتها على كرسي بسبب إهماله، كان لازم رجله تتقطع. والتاني قرر بكل بساطة إنه يسم كل الكلاب اللي في الشارع بتاعه، كلاب مسكينة نتيجة إنهم صدقوا إنسان هو موتهم، والأخير قرر إنه يحرق شركة شريكه القديم، والنتيجة إن أمن الشركة وشه اتحرق واتشوه.

ارتبك داوود لما سمعه فأجاب بصوت متلجلج:

- حتى لو كانوا عملوا كده فعلًا، انت فاكر نفسك مين عشان تحاكم وتقتل من غير حساب؟

- أنوبيس.. إله الموت.

أنهى جملته وضغط على الجهاز الذي يحمله في يده لترتخي الحبال المعلقة حول رقاب الثلاث رجال ليشنقوا في الحال، ضغط زرًا آخر فساد الظلام القصر بأكمله، وقبل أن يتحرك داوود كان أنوبيس قد رحل، رائحة غاز قوية تسللت فجأة إلى أنفه، نظر خلفه ليجد النار قد أضرمت في رجاله، يصرخون في ألم وهم يحترقون أمام عينه.

بعد عودته لمكتبه كان مديره ينتظره، لم يعجبه ما حكاه داوود، خصوصًا وأنه شرطي محترف، كالحياة تمامًا، كلما ازدادت قوتك كلما ازدادت مسؤولياتك.

- لا عرفت تنقذ الرهاين وكمان فريقك كله مات بسبب إهمالك!

أفاق داوود من شروده على وجه بائع الصحف وهو يعطيه باقي ما دفع، ليشكره وهو يتحرك إلى منزله ليبدأ في البحث عن تاريخ المدعو (رحيم الحاوي) عن طريق قراءة كل ما نشر عنه في الصحف والمواقع الإلكترونية لعله يكون دليل يساعده بأي شكل.

***

هاتف تامر لم تنقطع عنه الاتصالات والرسائل طوال اليوم، الجميع يهنئه ويشيد بالمقال، كان قد نسي شعور النجاح والفخر منذ سنوات، كان قد نسى ماهية السعادة منذ رحلت رقية وتركته، كان يحبها بصدق، وهي

أيضًا أحبته، إلا أنها لم تتمكن من مواكبة انحدار حياته بهذا الشكل، كانت رقية زميلته في الدراسة، أحبت شغفه بالكتابة، كانت دومًا تخبره أنه سيكون من أفضل الصحفيين في مصر، كان يستمد قوته من تشجيعها المستمر له، حاول كثيرًا أن يجمع شتات نفسه، حاول أن يوفي بوعده لها بأنه سيبقى الأول والأنجح دومًا، ولكن الحظ لم يكن الحليف الأمثل لتامر في حياته الزوجية.

- الأحسن ليا وليك إننا نبعد يا تامر، ساعات فيه حاجات من كتر ما بنتمسك بيها بتقتلنا.

رحلت رقية في صمت، كالأفلام الكلاسيكية، تركت له جوابًا تخبره بأن الحياة معه أصبحت مستحيلة، أخبرته أنها حاولت بكل الطرق أن تحتفظ بهذا الحب، ولكن بلا جدوى، حاولت أن ترى البقعة البيضاء الصغيرة في وسط البقعة السوداء الكبيرة، ولكن الأبيض كان أقل من اللازم.

فكر في لحظة أن يتصل بها، يراسلها حتى، يخبرها أنه على الخطوات الأولى للنجاح، أسوأ نجاح هو الذي لا تجد من تشاركه معه، لكنه تراجع، أخبر نفسه بأن ما حدث ليس سوى البداية، وأنه سينتظر الوقت المناسب كي يتصل بها ويحاول استعادتها مرة أخرى.

وبينما هو غارق في تفكيره بدأ باب الشقة في الصياح، كان الزائر الأستاذ بديع صاحب العمارة، كالنمل يلهف

وراء السكر، بمجرد أن قرأ اسم تامر على صفحات الجريدة تيقن أنه أصبح مستعدًا لدفع الإيجار، مد يده إلى الأمام محركًا أصابعه بتلك الحركة التي تعني (أين المال؟)، إلا أن تامر خيب ظنه وقال:

- المقال لسه نازل يا أستاذ بديع، خلاص المكافأة تنزل وعينيا ليك.

أجابه بديع بأسلوب فظ قائلًا:

- أنا مش عايز عينيك يا حبيبي، أنا عايز فلوسي! بكرة تقبضني يا هتلاقي كراكيبك عند عم صبري مرمية جنب الجبنة الرومي، آمين؟

لم يمهله الوقت ليجيب، خرج من الشقة كالثور الهائج، أغلق تامر الباب خلفه في عنف لدرجة أنه سمع صوت طقطقة في الجدار على أثرها سقطت لوحة صغيرة أرضًا ليتناثر زجاجها في كل مكان، كور قبضته ضاربًا بها الباب فخرجت منه صرخة مدوية من أثر الألم، مسح دمعة انسابت من عينيه وألقى بجسده على الفراش وهو يدعو الله أن تتبدل أحواله للأفضل قبل أن يقوم من مكانه ويبدأ هوايته في مراقبة الجيران.

***

في مساء اليوم التالي، كان تامر يجلس أمام رحيم في زنزانته، ناوله تامر الجريدة التي تحمل صورته في الصفحة الأولى، تأمل الصورة للحظات وهو يتحسس لحيته بيده

الأخرى وقال:

- شكلي اتغير، غريبة إزاي ممكن شوية شهور تغير كل حياتك!

- بس الدقن حلوة عليك برضو!

تهتز كراسته الصغيرة وقلمه بين يديه، متشوق ليعرف كل ما لديه كي يكتب أكثر، لا يرى أمامه سوى صاحب الشقة ومستحقاته، وكأنه يسابق الزمن بتلك القصة ليحقق ذاته، ابتسم حاوي وقال قبل أن يبدأ تامر أسئلته:

- مبروك المقال، سمعت من الباشا الكبير إنه حقق نجاح هايل!

ابتسم تامر في سعادة وقال:

- الشكر ليك! حكايتك ملهمة يا أستاذ رحيم..

- ناديني حاوي، رحيم مات من زمان.

نظر له للحظات ثم سأله بمكر:

- مش حاوي ورحيم شخص واحد؟

- الحياة علمتني إن كل شخص عايش ورا قناع لازم يحافظ على هويته الحقيقية، بداية النهاية هي بداية اقتناعك إنك عايش بهوية واحدة مش اتنين، يوم ما قررت أعيش على إني إنسان واحد قدر حاوي يخلص على رحيم بكل سهولة، ومن ساعتها وهو مارجعش تاني.

- مش بتحب حاوي؟

- حاوي هو النسخة الأسوأ والأقوى من رحيم، وجود رحيم بدأ يقل في كل مرة كنت برتكب فيها جريمة جديدة، وكأني كان جوايا ٧ أرواح زي القطط، ومع كل جريمة كنت بعملها روح منهم كانت بتموت، لحد ما فضل بس روح حاوي، الروح اللي رافضة تموت ورافضة تتغير.

***

الجريمة الثانية

القاهرة - ٢٠٠٣

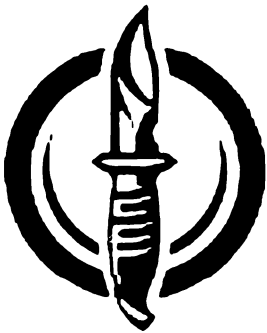

بحث الجميع عن ناجي لأسابيع وأشهر حتى قيدت القضية ضد مجهول، نسيانه لم يحتَج لوقت أو مجهود، لم يكن محبوبًا بالشكل الكافي ليتذكره أحد لزمنٍ طويل، عادت حياتي لطبيعتها أخيرًا، إلا أن للجريمة توابع، أصبحت أفرط في غسل يدي طوال الوقت، وأصاب بين الوقت والآخر بنوبات من ضيق التنفس، بالإضافة إلى كوابيس لا تنتهي، لا أتذكر تفاصيلها حينما أستيقظ، كل ما أتذكره هو بحر الدم الذي أغرق به في كل ليلة.

مرت عدة سنوات سريعًا، أتممت عامي السادس عشر، لم أقم بأي جريمة أخرى قبل هذا العام باستثناء بعض الحيوانات المثيرة للموت، كلب صغير في شارعنا لا يتوقف

طوال الليل عن النباح، قطة سوداء تفزعني على سلم بيتنا دومًا، وبعض الحشرات الذي كنت أتلذذ بإحراقهم فقط لتعديهم حدود مطبخ بيتنا. أتممت عامي السادس عشر في صمت، بلا أي احتفالات مثل كل عام، كان يكتفي أبي فقط بجملة رتيبة لا مشاعر فيها وهو يهنئني قائلًا في فتور "كل سنة وانت بخير يا رحيم"، بعدما يدس في يدي بعض الأوراق المالية، كم تمنيت لو أقام لي حفلًا واحدًا على سبيل التغيير، حتى إن كان حفلًا بلا ضيوف، كل ما تمنيته في يوم من الأيام هو كعكة صغيرة، شمعة واحدة، وهدية بسيطة تشعرني أن هناك من يشعر بوجودي إلا أن أحلامي لم يكتب لها التحقق على يد سيادة المستشار، كم كان الأمر مضحكًا، أبي الذي كان مثال العدل لدى الجميع، صوت الحق في زمن الحق فيه أبكم، لم يعدل معي ولو لمرة واحدة في حياتي، يحاسبني لذنب لم أقترفه وجريمة لم أرتكبها، أبي قرر منذ أن تركته أمي ورحلت أن ينفذ حكمًا بالأحزان الشاقة المؤبدة، في سجن قوانينه وزنزانة آلامه، حكم لم يعرف المحكوم عليه متى ينقضي.

- أعياد الميلاد دي تضييع وقت، اللي اخترعوها ناس تافهة مش وراهم حاجة! وبعدين انت راجل! أعياد الميلاد دي للبنات!

جلست في غرفتي ألعب بالبازل كنوع من أنواع الاحتفال بعيد ميلادي البائس، كنت أحب البازل لكونها اللعبة الوحيدة التي يمكن أن ألعبها وحدي دون أن

أحتاج لرفيق، هل الوحدة تؤدي إلى الجنون؟ هل تحول ماهية الإنسان تأتي من الأساس لهذا الشعور القاتم بأن لا أحد يشاركك أي شيء في حياتك؟ أكملت في لعبي وفلسفتي حتى وصلتني رسالة نصية غير متوقعة منها، ليان، زميلة الدراسة، أجمل ما رأت عيني من فتيات، كانت الأجمل بلا منازع، لم أحلم حتى بالتحدث معها في يوم من الأيام، كانت رسالة قصيرة كتبت فيها "كل سنة وانت طيب يا رحيم، عقبال ١٠٠ سنة"، لم أصدق نفسي، لم أنسَ هذا اليوم في حياتي، لكونه بداية أجمل شيء حدث في حياتي، بداية حكايتي مع ليان.

اقتربنا سريعًا في شهور قليلة، توالفت ماهيتنا دون مجهود يذكر، أنا رحيم غريب الأطوار الذي كلما كبر كلما ابتعد عن الناس أكثر، وهي ليان، الملعونة بجمالها فأصبح الجميع يخشى محادثتها خوفًا من أن تجرحهم بكلمة لن يصمدوا أمام قوتها، كانت تحب القراءة، تتغذى على الروايات، تتخيل نفسها بطلة كل القصص التي كانت تعشقها، رغم جمالها كانت تنسى كثيرًا أن تشتري ملابس جديدة كسائر الفتيات وتنفق كل ما تدخر على الكتب، أحببتها، وأحببت حبها للروايات، فقررت أن أصبح كاتبها المفضل وأن تصبح هي بطلة كل رواياتي.

ذات صباح جلسنا في حوش المدرسة قبل حضور الجميع، أمسكت بين يديها أولى محاولاتي الكتابية وقالت في انبهار حقيقي:

- تحفة يا رحيم! لازم تكمل الرواية دي!

- عجبتك بجد؟ أنا سميت البطلة على اسمك على فكرة.

- اعمل حسابك بقى إني هكون بطلة كل رواياتك!

كنت أتمنى أن أخبرها في تلك اللحظة أنها بالفعل البطلة الوحيدة، ليست فقط لرواياتي، بل لحياتي بأكملها، سارح في تفاصيلها، موهوم بجمالها ورقتها، أفقت على صوته الدميم، حسام، زميلنا في الفصل، كان حسام أضخم من اللازم، أطول من المعتاد وأسخف من الجميع، بل إنه كان أسخف من ناجي، فإن كان ناجي كائنًا هلاميًا صغيرًا، حسام كان على قمة الرأسقدميات، حبار قبيح، فهو كالمنقار، يبخ سمًا ليشل فريسته، إلا أنه لم يكن يعرف أن حياة الحبار قصيرة للغاية.

- إيه يا عم الشاعر! قديم أوي اللي بتعمله ده خلي بالك!

نظرت له ليان في غضب وقالت:

- امشِ يا حسام! ماتخلينيش أروح أشتكيك زي المرة اللي فاتت.

تظاهر حسام بالخوف وقال مستهزئًا:

- تصدقي اترعبت! هاتي الورق ده وريني مكتوب جواه إيه!

قالها وهو يجذب الورق من بين يديها، تملكني الغضب والإحراج، عادت إلى رأسي ذكرى يوم موت ناجي،

رأيت التراب مرة أخرى وهو يغطي وجهه، بدأ وجهي في الاحمرار، لم أكن شابًا طويلًا أو مفتول العضلات، كنت شخصًا عاديًا، عريضًا قليلًا ربما، ولكنني في النهاية عادي، نزعت أوراقي من بين يديه في غضب فتقطع معظمها، ضحك في استهزاء قبل أن يتركنا ويرحل بعيدًا في انتشاء ذكوري مريض.

حظ المبتدئين، هكذا أسميت جرائمي الأولى، لكونهم الأسهل فعلًا وتنفيذًا وتباعًا، بعد نهاية اليوم الدراسي تسللت إلى معمل المدرسة، قمت بسرقة مشرط طبي صغير يستخدمه الأستاذ في شرح مادة الأحياء، وضعته في جيبي، وظللت سائرًا خلف حسام حتى دلف إلى شارع صغير خالٍ تمامًا من المارة، اقتربت منه، أمسكته من قميصه، إلا أنه عاجلني بقبضة من يده العملاقة جعلتني أترنح قليلًا.

- مش كفاية اللي حصل فيك الصبح قدام ليان؟ عايز تضرب في الشارع كمان؟

- أنا ممكن أعدي أي حاجة، إلا إنك تضايق ليان!

ضحك في سخرية وقال متسائلًا في تعجب:

- انت فاكر إنها ممكن تحبك يا رحيم؟ يا ابني البنت بتشفق عليك! شايفاك طول الوقت لوحدك وماحدش بيحبك، بتاخد ثواب يعني.

قد أقبل أي شيء، قد أتحمل أي نقد مهما كان مؤلمًا

ولاذعًا، لكن ما لا أقبله أبدًا هو الزج باسم ليان في أي شيء قد يؤلمني، هي سعادتي بلا منازع، هي العالم بأسره، لم أستطع أن أتمالك غضبي أكثر من هذا، بخفة يد أخرجت المشرط من جيبي، طعنته في أول الأمر فيما طلته من جسده محدثًا جرحًا في معدته، سقط أرضًا يتأوه في ألم، حاول أن يتصدى لضربتي إلا أنني كنت أسرع منه، والفضل يعود فقط للأدرينالين، مررت بالمشرط على رقبة حسام بمنتهى البساطة والسرعة دون تفكير، تذكرت أبي في تلك اللحظة، تحديدًا ذكرى مر عليها عامين، كان العيد الأسوأ في حياتي، كان أبي يقف إلى جانب الجزار والأضحية، خروف مسكين ينتظر لحظة الإظلام الأخيرة له في هذا العالم، أسقطه الجزار أرضًا وقبل أن يشرع في الذبح نادى على أبي، اقتربت منه بقدم تحملني بالكاد، سحب السكين من يد الجزار وقال بوجه لا مشاعر به:

- يلا يا رحيم، انت اللي هتذبح! لازم تتعلم الذبح عشان تبقى راجل!

لم أكن اعلم أن في دستور الرجال بند ينص على أن الرجل لن تكتمل رجولته بدون الدم، امسكت بالسكين بيد مرتعشة ومترددة، الغريب ورغم هول الموقف، قمت بذبح الحيوان المسكين بلا تردد، وكأن ناجي تجسد مرة أخرى في هذا الحيوان فقتلته بلا رحمة، حتى أن أبي أصابه ذعر مؤقت مما أقدمت عليه، لم يتمكن من إخفائه خلف

مشاعره الباردة دومًا، لم أفق إلا على مشهد رقبة حسام المذبوحة والدماء تسيل منها، بدأ جسده في التشنج، عينيه من هول الموقف شعرت وأنها ستقتلع من مكانها، ثوانٍ معدودة وقف يصارع الموت أو يصارع دهشته، ليستكين بعدها جثة هامدة بلا حراك ودمه يسيل مغرقًا الشارع.

أطلقت لقدمي العنان، ركضت بلا توقف حتى كادت أن تنقطع ضلوعي، كنت أشبه Forrest Gump في مشهده الأول وهو يركض كالمجنون، وصلت إلى المنزل، نزعت ملابسي بالكامل وفي الحديقة الخلفية للبيت قمت بإحراقها، جلست أمام الرماد أبكي في نحيب متقطع، لم أكن أبكي في تلك اللحظة خوفًا من نتيجة ما فعلت، بل كنت أبكي خوفًا من نفسي، وخوفًا من (الرجل) الذي تمناه أبي.

كنت أعيش أنا وأبي في فيلا مكونة من ثلاثة أدوار في شارع هادئ بمنطقة الزمالك، كانت ملكًا لجدي سيادة المستشار لاشين عز الدين، وبعد وفاته ورثها أبي وانتقلنا لنعيش فيها، بعد رحيل أمي أصبحت الفيلا أشبه بمنازل الأشباح، لا روح فيها ولا دفء، غرف عديدة، ولكنها خاوية من الحياة، أجمل ما كان يميز تلك الفيلا في طفولتي هو ابتعاد غرفتي عن غرفة أبي والذي كان يقضي أغلب وقته في القبو ليراجع قضاياه كما كان يخبرني، مما جعلني أتحاشى رؤيته كثيرًا والميزة الأخرى كانت عندما أصبحت (حاوي) بعد ذلك بأن المنزل أصبح معملي الخاص وقبر

الثعابين البشرية ومقر محاكمتهم الأخيرة.

***

- وبعدين؟

قالها تامر بشغف يزداد مع كل لقاء لهم، أجابه حاوي في هدوء:

- وقتها ماكانش فيه كاميرات في الشوارع زي دلوقتي، قضية مافيهاش شهود، ولا حتى شك أن ممكن يكون لشاب في المدرسة أعداء من أي نوع! مين هيشك في رحيم اللي طول الوقت في حاله قاعد ماسك الورقة والقلم وبيكتب؟ بس لفترة طويلة كنت بشوف في عيون ليان نظرة شك وخوف مني لحد ما نسينا اللي حصل بعد ما اتخرجنا من المدرسة..

- القاتل لازم يكون له منهج؟

ابتسم رحيم وقال:

- انت اللي بتختار المنهج بتاعك، بتختار تبقى سفاح بيقتل لمجرد القتل، أو تبقى إنسان عارف كويس هو بيعمل إيه وليه، القاتل لازم يبقى زي الحاوي، بيعرف إزاي يخبي تعاينه وإزاي يخرجها من جحورها في الوقت المناسب!

***

في الجريدة، وقف تامر في اليوم التالي ينتظر الأموال التي ستسقط عليه من السماء إلا أنها أتت مخيبة للآمال،

أمسك تامر بالظرف الصغير الذي ناوله إياه رئيس التحرير يتفحص محتواه في استياء، مبلغ صغير لن يغطي ثمن شهرين حتى من الإيجار المتأخر، نظر له تامر متسائلًا فربت الأستاذ صفوت على كتفه وقال:

- شد حيلك يا بطل وانت تاخد زيهم كل ما تعملي مقال يضرب زي اللي فاتوا!

إلا أنه أجابه في استياء:

- بس يا أستاذ صفوت المبلغ قليل أوي، أنا عندي مصاريف كتير وديون لازم تتسدد!

أجاب صفوت في سخرية:

- ما هو انت ماعملتش حوار مع مايكل جاكسون ولا الشيخ إمام يا تامر! في النهاية ده مجرم، يعني مالهوش تمن!

- بس حواديته بالنسبة للناس كنز، الراجل ماحكاش غير البداية وشوف الدنيا اتقلبت إزاي! تخيل لما يبدأ يحكي عن الجرايم اللي فضلت سنين راعبة ناس كتير!

أنهى كلامه بكلمات قليلة وإجابة قاطعة:

- كل ما تكتب كل ما هدلعك، همتك معايا يا بطل!

جلس تامر على فراشه لا يشغل باله سوى حاوي، أصبح مهووسًا بحكايته، طريقته الشيقة في الإلقاء والحكي وبالطبع فلسفته، أصبح الأفيون الخاص به، أصبح لا يطيق انتظار المكالمة التالية من رئيس السجن ليخبره عن موعد

زيارته التالية، هل حقًا أصبح يحب حكاياته بهذا الشكل العجيب؟ أم أنه يرى في تلك المقالات طوق نجاة يجمع شتات حياته من جديد؟

لم يكن له سوى أنه أعطى كل ما حصل عليه من مال لصاحب الشقة والذي قبل المبلغ على مضض، بجزء من الإيجار أفضل من اللاشيء، وعده تامر بأنه سيحصل على الباقي خلال أيام فوافق، لكن صاحب موافقته الكثير من التهديد الذي لا ينتهي.

- بالله عليك تشد حيلك معايا يا أستاذ تامر! بلاش تفضل تنقطني!

***

أصبح داوود يمضي ساعات يومه الصباحية متجولًا في الشوارع بلا هدف كالأبله، لا يفعل شيئًا سوى شراء الصحف لمعرفة آخر أنباء القاتل المجهول، وكما أطلق على نفسه يوم لقائه به، أنوبيس، يدور حول نفسه، أخرج هاتفه ليطلب رقم أحد زملائه أملًا في بعض المساعدة، رد الصديق بصوت شبه نائم وقال في تساؤل:

- خير يا داوود؟ الساعة ٨ الصبح يا راجل يا مؤمن!

شعر داوود بالإحراج، وحدهم العاطلون يفقدون القدرة على حساب الزمن، البقية يعيشون وفقًا لعقارب الساعة حتى أصبحوا يعبدون تلك العقارب اللعينة.

- لسه واخد بالي إن النهاردا إجازة، حقك عليا يا علاء، كنت بس عايز أسألك مافيش أخبار عن موضوع أنوبيس ده؟

- انت حبيبي يا عم دودو، زي ما وعدتك لو فيه جديد هقولك، افصل انت بس واتبسط بإجازتك يا كبير.

عاد إلى منزله خائب الآمال، نادى زوجته إلا أنها لم تجبه، دلف إلى غرفته باحثًا عنها، ارتعد لرؤية زوجته إكليل مكبلة الأيدي والفم على أحد المقاعد، وعلى المقعد المقابل لها جلس هذا المدعو أنوبيس يشير بفوهة مسدسه لوجه المسكينة الخائفة، أشار بيده لداوود كي يجلس على فراشه، نفذ داوود ما طلبه الرجل، لم ينبس ببنت شفة، أدرك الموقف، فقد القدرة على الحراك، يتصبب عرقًا وهو يتأمل المسدس اللعين الذي يواجه وجه زوجته، نظر له المقنع وقال بصوت رخيم:

- بتدوّر عليا ليه يا داوود باشا؟ انت مش اتوقفت عن العمل؟ عايز تتوقف عن الحياة كمان؟ طب المدام ذنبها إيه؟ دي حتى شكلها لسه صغير!

خرجت كلمات داوود متقطعة من هول الموقف وسأله:

- انت دخلت هنا إزاي؟

ضحك أنوبيس في سخرية وقال:

- نفس الأسئلة التافهة اللي مافيش غيرها! دخلت هنا

إزاي! عرفت منين إنك بتراقبني! جبت عنواني منين! كلها أسئلة عيب تطلع من محقق شاطر زيك! ولا يمكن قاعدة البيت هي السبب؟

- البركة فيك!

- تنفيذ العدل يخوف ساعات، خصوصًا للناس اللي ماعرفوش غير الظلم في حياتهم يا باشا.

- للأسف العدل عندك غير العدل في قاموسي، عايز إيه؟

وكأنه كان ينتظر السؤال منذ بداية الحديث، أجاب بلا تفكير:

- عايز أقابل رحيم لاشين، الحاوي.

أنهى جملته، أخرج من معطفه ورقة صغيرة تحمل رقمًا مدونًا، ثم قال قبل أن يرحل:

- خليني أقابل الحاوي وأوعدك هخليك ترجع شغلك تاني.

هرع داوود ليفك قيود إكليل التي كانت تبكي في ذعر، ضمها إليه، يعلم أن كل كلمات الاعتذار لن تكفي، يعلم أنه أصبح أضعف من أن يحميها، وأن هذا اللعين لن يتوقف حتى يحصل على مراده، هو الآن في خانة اليك، إما أن يرضخ لما يريد هذا الأنوبيس، وإما أن يخاطر بحياة أغلى ما لديه في هذا العالم.

- أنا آسف..

- مين ده يا داوود؟

قالتها وهي ترتعد.

- أوعدك إن ده مش هيحصل تاني، أوعدك إن كل ده هيخلص قريب أوي..

***

بعد يومين، كان لقاء جديد بين تامر ورحيم، دلف تامر إلى الزنزانة، كان رحيم جالسًا في مقعده كشجرة متيبسة تنتظر بعض الماء، مغمض العينين، مستغرقًا في التفكير، فوق رأسه الصلعاء استقر ثعبان أخضر صغير الحجم في هدوء، انتفض تامر من المشهد وقال في قلق:

- مش ممكن يعضك؟

- مين؟ بقدونس؟ ده أطيب خلق الله، ده جرين تري بايثون، ومش سام. عارف يا تامر، بشر كتير بنفضل نوجعهم ونيجي عليهم عشان بس بنبقى عارفين إنهم مش سامين، بس لما بنتمادى في الأذى بنلاقي العقاب اللي نستاهله، بنزرع جواهم السم من عمايلنا فيهم.

***

الجريمة الثالثة

القاهرة – ٢٠٠٥

أراد أبي أن ألتحق بكلية الحقوق لأتبع خطاه، ولكني لم أتمنَّ سوى أن أصبح كاتبًا، كان تشجيع ليان هو الوقود، وجودها هو الحياة بأسرها، كنت أكتب دومًا عنها، أتخيلها بطلة كل رواياتي كما تمنت في يوم من الأيام، تلهمني فقط بحضورها، فتتحول أفكاري لحروف تُصاغ كلها لأجلها، التحقت هي بكلية السياحة والفنادق والتحقت أنا بكلية الآداب، وتخصصت في قسم الفلسفة، لأرى العالم بشكل مختلف، وأعرف أن لكل شيء في هذه الحياة فلسفة خاصة به، حتى القتل.

يرى أغلب البشر الموت على هيئة وحش مخيف، أما أنا فأراه التحرر النهائي من كل شيء، عدل يتحقق، باب نعبره

للمصير المنتظر، وحده مصيري هو ما لم أفكر به أبدًا.

كنت قد اتخذت قرارًا هامًا منذ عامين قبل أن أبدأ حياتي كطالب جامعي طبيعي، لا مزيد من القتل، لقد حالفني الحظ مع ناجي وحسام، عاهدت نفسي أن أتمالك عقلي، لا مزيد من التسرع في ردود الأفعال، إلا أنني أصبحت أحلم بكوابيس لحواها الدماء في كل ليلة، أغمض عيني فأرى نفسي أسبح في بحر لا نهاية له من الدم، يجذبني من قدمي كائن ضخم مخيف أسود اللون، فأتجرع الدم في فمي، أفقد القدرة على التنفس، يتشنج جسدي لأفيق على وجه ناجي وهو يبكي في ذعر، وحسام يجري نحوي بلا رقبة، كابوس لا ينقطع، حتى قررت في أحد الأيام أن أذهب الى النادي لأتفقد (الخرابة).

عامان مرّا منذ اتخذت قراري بأنني لن أقدم على القتل مرة أخرى، وقفت وأنا ابن الثامنة عشر ربيعًا أمام تلك البقعة التي دفنته بها منذ سنوات، تحولت الأرض الصحراوية المهجورة لحديقة ممتلئة بالأشجار، على الأغلب جذور إحدى تلك الأشجار متمددة في هيكله العظمي الآن تخترق عينيه وفمه، انتفضت فجأة عندما وجدت يدًا توضع على ذراعي من الخلف، استدرت خائفًا لأجد أمامي عم حافظ أمن النادي، الرجل الذي غير حياتي، ازداد عمره سنوات قليلة منذ رأيته آخر مرة، إلا أنها سنوات بدت مؤثرة في هيئته المهيبة، عرفني في لحظات دون مجهود، ابتسم وهو يربت على كتفي وقال:

- يا مالك يوم الدين! عاش من شافك يا رحيم يا ابني!

ابتسمت له في ود مختلط ببعض الخوف:

- عم حافظ، والله ليك وحشة!

- تعالى أما أسقيك شوية شاي..

- معلش والله مستعجل ولازم أمشي..

قلتها وهممت بالرحيل، إلا أنه أمسك بيدي وقال بابتسامة ماكرة:

- تمشي ليه بس، ده إحنا حتى ماتحدثناش على اليوم اللي دفنت ناجي فيه هنا!

ألجمتني جملته، لم أنطق، فقط تبعته لتلك البقعة التي يجلس بها دومًا، بقعة تحتوي على مقعدين متهالكين، بعض الطعام وبعض الأكواب ولوازم اليوم من إناء للشاي، سبرتاية صدئة، بعض السكر وكيس صغير يحتوي على بعض البن.

بدأ يعد لنا الشاي وأنا أراقبه في ذعر، ماذا يعرف هذا العجوز، ماذا يريد مني، وكيف استطاع أن يكشف سري الأول! هل أبحث عن أي شيء حولي لأقتله وأدفنه بجانب ناجي؟

يسكب الشاي ببطء فأرى بدلًا من قطراته نقاط من الدم تنساب في رعب على وجهي فتعميه وتحرقه، عاد مشهد موت ناجي ودفنه أمام عيني كشريط سينمائي،

تخيلت نفسي مسجونًا خلف القضبان بينما يجلس أبي فوق مقعد القاضي ويحكم عليّ بالإعدام وهو يضحك في شر.

وضع كوبي أمامي، نظر إليَّ بعدما ارتشف من كوبه رشفة كبيرة ثم قال:

- كلام في سرك، أنا ماكنتش بحب الواد ده، واد جلده تخين زي تعبان الكالابار. فيه ناس الموت رحمة لي حواليهم قبل ما يبقى رحمة ليهم.

لم أجد ما أقوله، حبست كل الإجابات في حلقي، أخذ رشفة أخرى مصحوبة بصوت كريه وأكمل كلامه قائلًا:

- سنين طوال استنيتك ترجع، أصل القاتل البريمو لازم ولا بد يرجع يشقر على شغله، زي الصيانة يا ولدي، يوم ما عملت عملتك أنا كنت موجود، براقب من بعيد، غشيم بس معلم، بس غشامتك هي اللي خلتك تخلص أوام وماتسبش وراك ديول. بس أما تعملها تاني ابقى فنجل عيونك، اللعبة دي ماينفعهاش عيون نعسانين.

لم أجد ما أقول، ربت على كتفي في ود ثم أكمل:

- كل واحد فينا عايش بشخصيتين يا رحيم يا ولدي، زمان قبل ما آجي على مصر ماكنتش عم حافظ بتاع الأمن، كنت وقتها لسه مطاوع، مطاوع السوهاجي، الاسم اللي كان ملبش جتة الصعيد لسنين، أول جريمة عملتها كنت أصغر منك كمان. عيب الدم إنه يبصبح كيف بعد

شوية، بحبه وبتفكر فيه زي النسوان، بيندهك زي النداهة ومش هتعرف تقولها لا. الشاطر هو اللي يعرف يعمل ده ازاي وامتى وفين.

كالمخمور، أستمع إلى قصة عم حافظ، هذا الأسمر الجميل ذا العقد السابع، هذا العجوز الذي ترعرعت في النادي وأنا لا أرى منه سوى ابتسامته الصافية وانحناءة ظهره الواهنة، اكتشف الآن أنه سفاح عتيد من الصعيد. شرع يحكي قصته وكأنه كان في انتظاري لسنوات كي يلقي حملًا ثقيلًا حمله وحده لسنوات.

بدأ يحكي عن قصة مطاوع السوهاجي، والذي عرف إعلاميًا في تلك الفترة باسم سفاح سوهاج، كان مطاوع منذ شبابه عريض المنكبين، ضخمًا، يهابه الجميع، حتى بدأ أصدقائه من الأشقياء في استغلاله لينفذ بعض الجرائم الصغيرة كالتهديد وفرض الإتاوات، ومع الوقت بدأت الجرائم في التفاقم، حتى تحول مطاوع البلطجي لمطاوع السفاح، يقتل لمن يدفع، يقتل من يغضبه، يقتل حتى في المطلق لإشباع رغبة بداخله كانت تزداد بعد كل جريمة.

كطوق نجاة من غياهب الوحدة أمسك بي وشرع في قص حكايته مع عصابته لسنوات طويلة ليهرب في النهاية من حكم بالإعدام تاركًا زوجته وأبناءه التوأم والصعيد للأبد، حتى أتى إلى القاهرة، عاش فترة في أحضان الشوارع بلا ملجأ، ليتعرف بعد فترة على مدير النادي وقتها منذ خمسة عشر عامًا، كان الأخير يسير في الشارع ليلًا

وحاول بعض اللصوص سرقته، إلا أن مطاوع تصدى لهم وأنقذه، أخبره أنه مشرد من الصعيد بلا عمل ولا عائلة ولا سقف يستره، تعاطف معه الرجل وساعده ليعمل في هذا النادي.

- خلفت بنتي على كبر، كنت ابن الخمسة وأربعين، ولجل عيون الحرام ماتهنتش بيها ولا مليت عيني منها.

في البداية عمل في المكتبة الخاصة بالنادي، يرتب الكتب ويهتم بنظافتها، المهنة التي أتاحت له الفرصة لقراءة عشرات الكتب والروايات في شتى المجالات وأعطته خبرة لا يستهان بها في أمور مثيرة، ثم بعدما قارب على الستين، تم نقله كعامل أمن تحت اسم عم حافظ، ليصبح النادي عمله ومنزله أيضًا داخل أحضان الكشك الخشبي، بلا أسرة ولا أصدقاء سوى الكتب، وماضٍ يحمله وحده، حتى أتيت أنا ليشاركني مأساته.

- أنا حكيتلك سري يا رحيم عشان تطمن إن سرك في أمان يا ولدي.

تنهدت ثم أجبته في حزن:

- أنا بفكر في القتل طول الوقت، هو أنا مريض يا عم حافظ؟

تقبل كلماتي بابتسامة مطمئنة وقال:

- القتل جزء منك يا رحيم، اتعشق في روحك زي الطير

اللي بيتدارى في عشه ويحابي عليه، مافيش إنسان بيلغي جزء منه، المهم تكون انت دايمًا الأقوى والمسيطر على نفسك.

حكيت له عن كوابيس جريمتي الأولى، ثم تبعتها بقص ما حدث مع حسام، ضحيتي الثانية، حكيت له عن كوابيس حمراء مجهولة الملامح من كثرة الدماء بها تزورني كل ليلة، حكيت لساعات ويستمع هو بإنصات كطبيب نفسي مع مريضه المفضل.

دلف بعدها إلى داخل الكشك الخشبي الصغير الذي لم يتركه منذ جاء إلى القاهرة، مملكته الصغيرة، ليعود ومعه بعض الكتب، تعجبت إلا أنه ضحك وأخبرني أنه ورغم كل شيء فقد حصل على الشهادة الإعدادية وأنه لم ينسَ شغفه بالقراءة في يوم من الأيام.

- عايزك تقرأ الكتب دي، هتساعدك تعرف نفسك أكتر وتعرف اللي حواليك كمان، أنا مش هسيبك. من النهاردة اعرف إن فيه حد تقدر تشاركه سرك.. بس الأول لازم نحط شوية قواعد مع بعض..

- قواعد؟!

ابتسم وربَّت على كتفي وقال بجدية:

- ومالك يوم الدين، طول ما انت بتمشي على سطور الصح مش هتتأذى من الدنيا. القواعد دي بيها هتقدر تدير حياتك في أمان، وأول قاعدة لازم تعرف امتى تبقى

رحيم لاشين الإنسان العادي اللي بيمشي في الشارع يحط عينه في أتخن تخين بالأصول، وامتى تقدر تبقى حاوي عارف أماكن التعابين ويلاعبهم على واحدة ونص. التعابين والأفاعي من البشر أسوأ بكتير من المساكين اللي بيبخوا سم عشان يدافعوا عن نفسهم، في حياتك هتقابل أفاعي هتتربصلك، وأفاعي تانية هتبقى عايزة تأذيك، طول ما انت حاوي ماحدش هيقدر عليك.

***

قاطعه تامر وقال متسائلًا في لهفة:

- عشان كده اتسميت حاوي؟ بتشوف فعلًا البشر أفاعي؟

- كل واحد فينا بيتولد ومعاه موهبة، موهبتي كانت إني حاوي شاطر، واللي اتعلمته من حافظ خلاني أعرف امتى أكون رحيم وامتى أكون حاوي.

نظر له تامر في عدم فهم متسائلًا:

- وبعدين حصل إيه؟

- لما المجرم يلاقي داعم دي في حد ذاتها أكبر جريمة. سنين الجامعة كلها ممكن ألخصهالك في جملة بسيطة، محاضرات، ليان وعم حافظ، المثلث ده كان أجمل مثلث في حياتي لحد ما اتخرجت وقررت أبدأ حياتي العملية، خلال الأربع سنين دول اتعلمت كل حاجة عن القتل

من حافظ، من أول أجزاء جسم الإنسان وطريقة تقطيع الجثث ولحد سيكولوجية الإنسان وطريقة تفكيره في الحالات اللي زيي، ومع ليان كنت بقابل الجزء الإنساني مني، الجزء النضيف اللي ماتغيرش ومتأثرش بهويتي كقاتل، مشكلتي الوحيدة كل السنين دي إني ماقدرتش ولا مرة أقولها إني بحبها، كان أسهل عندي إني أمسك سكينة أديح بيها شخص من غير ما أتهز، بس كنت باجي قدامها وأبقى عيل صغير مش عارف يقول كلمتين على بعض.

عاد رحيم مرة أخرى للحكي، أعاد رأسه إلى الوراء كمن يتذكر شيئًا، ثم بدأ يحكي..

***

للسكاكين عالم منفرد، هذا ما لم أسمع به من قبل معرفتي بعم حافظ، فهناك سكين للحفر، سكين للتقشير، سكين نزع العظام، سكين مخصص للستيك، سكين للخبز، وغيرهم، إلا أن أكثر ما جذب انتباهي كان السكين الياباني صغير الحجم (ديبا Deba) ذا الشفرة العريضة والسميكة، سكين صغير الحجم لكن له قدرات ساحرة في تقطيع العظام الصلبة بكل سهولة، أخبرني عم حافظ كل شيء عن السكاكين، حتى أصبحت ملمًا بكل ما أحتاجه من معلومات عن تلك الأداة السحرية، كان بمثابة السينسي، كان أستاذًا ومعلمًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

- لما تيجي تاخد روح إنسان، سكينتك ماتضربش في أي مكان وخلاص، ضربتك لازم تكون بتخلص عشان ماتديش فرصة للي قدامك إنه ياخد رد فعل عمره ما هيكون في صالحك، ركز على القلب، الدماغ، الشرايين والرئيين، خليك عامل زي الدكتور اللي عارف بيضرب سن المشرط فين.

استمعت لنصيحته، ظللت كالتلميذ النجيب أتدرب على مهاراتي في استخدام السكين، عرض عليَّ العشرات من الأنواع، يحكي مميزات وعيوب كل سكين كأنني أحضر بحثًا علميًا عنهم، يحضر لي كتبًا ثم كتبًا أكثر، إلا أن أكثر ما أثار انتباهي كانت السكاكين اليابانية، كنت كالطفل مع ألعابه، صغيرة الحجم، قادرة على تهشيم أي شيء بكل بساطة، وكم كنت أعشق تفتيت ألعابي لقطع صغيرة، خصوصًا تلك الألعاب التي تستحق الكسر والسحق، الألعاب التي كتب عليها (تحتوي على قطع حادة أو صغيرة قد تضر طفلك).

ضحيتي الثالثة كانت عوني، معيد بكلية السياحة والفنادق، كانت ليان تشتكي دائمًا من طريقته الغريبة معها، تشتكي من تعرضه لها، لمح لها بكثير من الطرق أنه معجب بها، لمح لها أنه سيساعدها في كل المواد وفي اجتياز الامتحانات فقط إن منحته فرصة التقرب منه، كان ضبعًا حقيرًا مختبئًا في هيئته وطريقته في الحديث، يستطيع الضبع كسر العظام بواسطة فكيه القويين وهي مهمة لا تتقنها

بقية الحيوانات الأخرى، إلا أنني لم أنسَ أن أتعلم كيفية التخلص من تلك الحيوانات العفنة.

- مالك؟ ليه شكلك زعلان أوي كده؟

كانت تبدو مهمومة على غير المعتاد.

- عوني تاني! الحيوان ده بقى يضايقني في الرايحة والجاية.

قالت تلك الجملة منفجرة في غضب، تعجبت لأنني طلبت منها عشرات المرات أن تسمح لي بالتدخل إلا أنها كانت دوما تقابل رغبتي بالغضب.

- وأنا قولتلك ١٠٠ مرة، سيبيني أتدخل!

- هو انت شايفني طفلة؟ مش عارفة آخد حقي مثلًا؟

- أنا ماقولتش كده، مش معنى إني عايز أساعدك أبقى شايفك طفلة يا ليان!

هي ليست طفلة، هي امرأة ناضجة كاملة الأنوثة، إلا أنها طفلتي أنا، حبيبتي الصغيرة المدللة، طفلتي التي لا أطيق حزنها، لا أطيق أن أرى أحدًا يؤذيها، ليان غير مصرح لأحد بأن يقترب منها، هي بالنسبة لقلبي كالمناطق العسكرية، ممنوع الاقتراب منها أو التصوير.

هي التي عرف قلبي معها معنى الحب بكل تفاصيله، وهي التي ألهمت مأمون الشناوي وبليغ حمدي كي يبدعوا في تلك الجملة "وإن كنت أقدر أحب تاني أحبك انت".

حكيت لعم حافظ عنه، أخبرته عن غضبي، إلا أنه عنفني، كنا نتقابل ليلًا عندما يبدأ أعضاء النادي في الرحيل إلى منازلهم، بكل تأكيد سيتعجب الناس من منظر هذا العضو الشاب الذي يجلس مع عامل الأمن العجوز أمام كشك الحراسة الخاص به لذلك كنا نتقابل بعد مواعيد العمل الرسمية. صاح في غضب بعدما حكيت له عن عوني وقال:

- وانت كل واحد هيزعل حبيبتك أو يكلمها كلمتين هتروح تقتله؟ انت مخبول يا ولدي؟

- أنا جاي أحكيلك عشان ماعنديش حد تاني أحكيله مش عشان أسمع منك الكلام ده!

- اقصر الشر يا رحيم، سلاحك تستعمله وقت اللزوم، مش هقولك إننا مش عايشين في غابة، ولا هقولك بلاش، المهم تبقى ناصح، عقلك يسبق إيدك وقلبك مايدقش وقت القدر بدل ما يعمي الاتنين، فاهمني؟

نفذت كلامه وتوقفت عن التفكير في الأمر، أسابيع مرت وهي لا تتحدث عنه حتى شعرت أنه توقف عن مضايقتها، حتى أتت في يوم من الأيام تبكي بحرقة، هذا الحيوان حاول تقبيلها مساء الليلة الماضية بعد انتهاء اليوم الدراسي، وعندما فوجئ برد فعلها وغضبها أخبرها أنه كان يمزح معها.

لم أظهر غضبي، تمالكت أعصابي، كل ما وعدتها به

أن كل هذا سينتهي قريبًا وأن هذا الوغد بكل تأكيد سيتوقف عن هذا عاجلًا أم آجلًا.

أصبح عوني هوايتي الجديدة، أسبوع وأنا أراقبه، أخبر أبي كل مساء أنني ذاهب إلى التمرين، وأبدأ فقرتي اليومية في مراقبة عوني، القاتل النجيب يجب أن يراقب ضحيته بوضوح، يعرف روتينه، خط سير يومه، حتى يعرف متى يجب عليه تحديدًا أن يضرب ضربته.

أدركت أن روتينه مملًا بعض الشيء، يستيقظ في السابعة، يصل إلى الجامعة في الثامنة، ويرحل في الخامسة، يتجه بعدها إلى أحد المقاهي، يدخن حجر المعسل اليومي مع بعض الأصدقاء، ليذهب بعدها إلى شقته الصغيرة التي يقطن بها وحده، لا يزوره أحد سوى عمال الديليفري خصوصًا من مطعم بيتزا رحاب، مطعم مجهول إلا أنه من عشاقه لسببٍ ما.

حصلت على رقمه من هاتف ليان، اتصلت به من كشك قريب في مساء أحد الأيام وأخبرته أنني من إدارة مطعم بيتزا رحاب، أخبرته أنه حصل على جائزة مكونة من ٢ بيتزا حجم كبير، سجق وميكس لحوم، مجانًا بمناسبة اليوبيل البرونزي للمطعم، بالطبع قام بابتلاع الطعم بكل سهولة، معدته ألغت تفكيره، لماذا سيكون لدى مطعم حقير مثل بيتزا رحاب إدارة خاصة تهتم بشؤون العملاء؟ كل ما احتجته لتلك المهمة قبعة لأغطي بها رأسي، علبتين من البيتزا وسكين صغير وشريط لاصق كبير الحجم.

صعدت إلى منزله، فتح الباب بلهفة شديدة، عاجلته بقبضة من يدي أسقطته أرضًا، حاول النهوض إلا أنني عاجلته بقبضة ثانية أفقدته القدرة على الحركة للحظات كانت كفيلة بأن أقوم بربطه بالشريط اللاصق في فراشه، عادت إلى رأسي مشاهد سريعة من طفولتي، شخص ما مربوط بشريط لاصق يحاول أن يتحرك، ولكن هيهات، لا أرى ملامح ولا أتذكر تفاصيل، فقط أسمع صرخات مكتومة تتحرك في رأسي.

- انت مين؟ عايز مني إيه؟

قالها مذعورًا إلا أنني ابتسمت قائلًا:

- مشكلة اللي بيلعب بالنار إنه بيبقى فاكر إنه مستحيل يتلسع منها، لمجرد إنه لعب بيها مرة واتنين من غير ما يحصله حاجة. أنا جاي عشان تدفع نتيجة أفعالك يا عوني.

تُستخدم كلًا من عظام وجلد ورأس الضبع لأغراض السحر الأسود والذي ينتشر في بعض الدول، وتعتبر تلك الأغراض هي الأخطر والأكثر فعالية من بين جميع أغراض السحر، ولذلك بدأت في تقطيع جلد هذا الضبع الحقير بسكيني الصغير، الدم يسيل من جسده، يصدر صرخات مكتومة مع كل طعنة، أمسكت بكفه الأيمن وبدأت في تقطيع أصابعه الواحد تلو الآخر حتى أصبحت يده ككف قط رضيع.

- ده الكف اللي كنت بتضايق بيه ليان!

كنت مستمتعًا بما أفعل، إلا أنني مع كل طعنة كنت أشعر بضيق في التنفس، وكأن رائحة الدم تخترق رئتي فتقوم بإغلاقهما، دقات قلبي تزداد، جسدي بدأ في الانتفاض، تمالكت نفسي بصعوبة وأنا أطعنه في قلبه ليسكن تمامًا، غسلت يدي، ثم غسلتها مرة ثانية وثالثة، اللون الأحمر لا يتركني إلا أنني أعلم في قرارة نفسي أني غسلتها كما ينبغي، بعض الأشياء لا تتركنا مهما حاولنا الهروب منها، تلتصق بنا إلى الأبد.

تأكدت أني لم أترك شيئًا ورائي، هرعت إلى الخارج متجهًا إلى أقرب صيدلية، دلفت إلى الداخل وأنا أتنفس بصعوبة، أخبرت الصيدلي أنني غير قادر على التنفس بشكل طبيعي، بدا عليه القلق والتعاطف، ناولني عبوة من البخاخة الطبية التي أصبحت صديقتي المفضلة بعد ذلك، اقترح عليَّ أن أستشير طبيبًا مختصًا، ناولني بعض الماء ودعاني للجلوس قليلًا، وهذا كل ما كنت أريده في تلك اللحظة، هدنة قصيرة لألتقط أنفاسي، شكرت الصيدلي ورحلت بعد عدة دقائق تاركًا مسرح جريمتي.

***

نظر تامر لبخاخة الربو الملقاة بجانب فراش رحيم في الزنزانة وقال متسائلًا:

- هو القتل بيجيب ربو؟

ضحك رحيم وقال:

- القاتل إنسان في النهاية، مش شرط يكون بيتلذذ باللي بيعمله على قد ما يكون مقتنع بيه. وبعدين الربو مش عرض جانبي للقتل، أنا بس اللي كنت بحس بخنقة بعد كل جريمة، جايز يكون ده عقابي؟

- ليان عملت إيه لما عرفت إنه اتقتل؟

- طبعًا استغربت، بس برضو أكيد ماشكتش فيا! مين هيشك في رحيم المسالم اللي مش بيعمل حاجة غير إنه بيكتب في روايات وقصص؟ ليان عمرها ما كانت بتشوف غير الجانب النضيف مني، غالبًا وقتها حست إن المشكلة فيها هي.

انتهى وقت مقابلة اليوم، شكره تامر، دلف إلى سيارته وهو لا يفكر في أي شيء سوى الدماء، كيف لإنسان أن يتجرد من ماهيته البشرية ليتحول إلى إله؟ تتخالط شعوره بين هذا الإحساس العظيم المهيب بقوة ما يفعل القاتل، يزهق الأرواح وكأنه يمتلك كتابهم، يمتلك نقطة النهاية لحياة كل منهم، إلا أنه يراه كائنًا حقيرًا، تجرد من كل مشاعره كإنسان، كائن تحول إلى لعنة متحركة، كيان مظلم لا تحركه سوى رغباته وشهواته، ولك أن تتخيل شخص شهوته هي الدماء، ظل سارحًا في كل ما يخص حاوي، يعلم أن حاوي قد ارتكب جرائم عديدة، يعلم أنه لم يسمع منها سوى البدايات ورغم هذا أصابته مشاعر مختلطة، لا يعلم تحديدًا إن كان يجب عليه أن يرى في رحيم بطلًا ينفذ

العدل بيده أم مجرم يسفك الدماء ليشبع رغباته إلا أنه رغم كل شيء شعر بالغيرة منه ومن قدرته على الإمساك بزمام حياته بالشكل الذي يتمناه لنفسه!

ظل يفكر ليتحرك بعدها لإحدى مكتبات منطقة وسط البلد، كان الوقت متأخرًا قليلًا، المكتبة شبه فارغة، يجلس في أحد الأركان شاب ثلاثيني يحتسي بعض القهوة ويحل السودوكو في سكون، اقترب منه تامر بابتسامته المعهودة وقال:

- مساء الخير، كنت بدوّر على روايات رحيم لاشين.

تحرك الشاب بخطوات متململة إلى أحد الرفوف وأشار لتامر قائلًا بصوت يغلب عليه النعاس:

- دي المجموعة الكاملة! عايز رواية معينة؟

- لا أشكرك، أنا هاخد فكرة بنفسي.

هز الشاب رأسه بلا اكتراث ليعود مرة أخرى إلى مشروبه ولعبته المملة تاركًا تامر أمام عشرات الروايات التي يغلب على معظمها اللون الأحمر، الروايات من مظهرها الأولي توحي بمحتواها وتصنيفها بلا مجهود في التفكير في فحواها، حتى اسمائها، (الموت المؤجل)، (ما رواه الموت)، (دماء وأسرار)، (ضحكة الموت)، (الطريق إلى الجحيم)، (القاتل الصامت) وغيرهم. أمسك بأحدها وبدأ في تصفحها، الانطباع الأولي أن الكاتب لديه لغة قوية، حكاء ماهر تستشف مهارته الأدبية حتى دون

التعمق فيما تقرأ، يحمل ظهر كل غلاف منهم صورة لرحيم مبتسمًا في ود، ابتسامة لا تليق تمامًا مع ماهيته، كيف لهذا الرجل الأنيق المبتسم في ود أن يكون قاتلًا متسلسلًا يقتل بلا رحمة؟

بجانبه وقفت شابة في العشرينات من عمرها تتفحص إحدى روايات رحيم لاشين في فضول وسعادة، اقترب منها تامر بابتسامته المعهودة وقال في ود:

- حلوة رواياته؟ أصل دي أول مرة أقرأ له!

- رحيم لاشين عبقري، بصراحة من القليلين اللي يستاهلوا يكونوا الأكثر مبيعًا.

تأمل الرواية التي تحملها في يدها ثم قال:

- هو شاطر للدرجة دي؟

- لما اتقبض عليه وعرفت حكايته ماستغربتش أوي بصراحة، وصفه في الروايات وصف حد عاش اللي بيكتبه، لازم تقرأ له.

شكرها تامر ثم اختار روايتين رشحتهما هي له ليشتريهم، ثم عاد بهما إلى منزله ليتعرف أكثر على عالم رحيم لاشين أو بمعنى أدق، عالم رحيم الحاوي.

"الجدع ده طلع شاطر بجد!".

هذا أول ما استشفه تامر بعدما عاد إلى منزله وشرع في قراءة الرواية الأولى التي ابتاعها من روايات رحيم، وجد

نفسه في لحظات قليلة منغمسًا مع الأحداث، يُسحب كغريق إلى أعماق تفاصيله وقصته، ومع بداية فجر اليوم التالي كان قد انتهى من قراءة الرواية، ليصبح من مريديه في وقت قياسي، إلا أن الشيء الذي ظل عالقًا برأسه هو كمية مشاهد الدم المذكورة بالرواية، وكأنه يشبع جزءًا منه فيما يكتب كي يظهر أمام الناس كإنسان طبيعي بلا أي خلل.

نشر المقال الجديد، حصل على مبلغ آخر وضع بأكمله بين كفي بديع الجشع، يكره فكرة أنه لا يستفيد بالمال في أي شيء خاص به، إلا أنه حمد الله على استطاعته أخيرًا أن يسدد جزءًا من الإيجار، أصبحت تلك المقالات هي الحياة بأكملها بالنسبة له، يتودد لمدير السجن بكل الطرق كي يعجّل من المقابلات، يحضر له في مرة علبة من الشوكولاتة الفاخرة التي دفع نصف مرتبه ثمنًا لها، لا مانع من قلم هدية مرة أخرى، كله فداء حاوي وحكاياته.

***

كان داوود جالسًا في زاوية الغرفة، وجهه شاحب وعيناه تحوم في أفق بعيد. هالات داكنة تلتف أسفل عينيه المنهكتين، ليالٍ من السهر والتفكير المضني. لم يكن قادرًا على الراحة أو النوم، بل مستغرقًا في همومه، وهمس متقطع يفلت من شفتيه في بعض الأحيان. بدا متوترًا وقلقًا، وكأن أفكاره تمزق روحه من الداخل. اقتربت منه إكليل وعلى وجهها ملامح القلق:

- حبيبي، عشان خاطري حاول تنام شوية، شكلك تعبان أوي!

- مش قادر أرتاح وأنا عارف إننا معرضين للخطر في أي لحظة.

اتصالات لا تتوقف، رسائل لا تنقطع، وداوود يبحث بين معارفه ودفاتره القديمة عن كل ما قد نسجته عناكب البحث من خيوط عن قضية رحيم الحاوي، بدأ في تدوين كل ما يسمعه، يرتب أوراقه بحثًا عما وراء تلك القصة الغريبة، قصة تحول رحيم فضل لاشين إلى رحيم الحاوي.

أكثر ما أثار التعجب لدى داوود هو أن رحيم رغم شعبيته الواسعة وشهرته شخص وحيد تمامًا، صفحاته على مواقع التواصل الاجتماعي خالية من أي وجوه غيره، باستثناء معجبينه، لا أقارب، لا أصدقاء، سلسلة لا تنتهي من الوحدة والبؤس رغم ابتسامته التي لا تفارقه في صوره كلها، المعلومات تشير أن أمه تركته وهو ابن الخامسة، وتوفي أبوه منذ عدة سنوات، ليس لديه أخوة، لا أقارب، رجل قارب على الأربعين، ميسور الحال، كلها معلومات يعرفها الجميع، لم يجد معلومة واحدة عنه غير التي ذكرتها صفحات الأخبار باستثناء مقال تم نشره في جريدة حديث الشعب منذ عدة أيام كتبه صحفي يدعى تامر الأميري.

شعر ببصيص من الأمل، اتصل بأحد أصدقائه من الضباط وطلب منه في لهفة:

- عايزك تجيب لي نمرة وعنوان صحفي اسمه تامر الأميري شغال في حديث الشعب.

***

يشعر رحيم أنه يحتاج لوجود تامر تمامًا كما يحتاج تامر قصصه، يعلم تمام العلم أنه يقف في طابور الموت ينتظر دورًا لا يعلم متى تحديدًا سيأتي، يعلم أن مهما فعل محاميه فالأمر محسوم، هو فقط يسرق من الزمن أسابيع أو ربما شهورًا إضافية، يؤجل زيارة الموت له بشتى الطرق، يجد في تامر ونسًا افتقده كثيرًا في الأعوام الماضية، يجد في تامر رفيقًا يسمع وينصت باهتمام، حتى لو كان بسبب طمعه في الشهرة أو المال، لكل إنسان الحق في بعض الطمع طالما كان مشروعًا.

لاحظ تامر فور دخوله إلى زنزانة رحيم أن يديه كانت خالية من الأصفاد، فقط قدميه المكبلة اليوم، ابتسم له رحيم في ود وقال:

- ماتقلقش، رجلي مربوطة ومش هعملك حاجة، أنا بس حسيت إن اللقاءات بتاعتنا محتاجة تكون إنسانية أكتر من كده، وبصراحة المأمور راجل محترم ومتفهم.

- مين قال إني خايف؟

مد حاوي رأسه فجأة باتجاه تامر ليقفز الأخير في ذعر، ضحك رحيم، ضحك من قلبه لأول مرة منذ أن التقى بتامر، شعر تامر بالإحراج فبادله بضحكة مصطنعة متوترة

وهو يمسح عرقه، جلس في مكانه وشرع في سؤاله الأول بلا تمهيد وكأنه لا يريد تضييع أي لحظة من المقابلة دون أن يستفيد منه:

- امتى بدأت كتابة؟

وضع رحيم يديه خلف رأسه وقال وهو ينظر إلى سقف زنزانته:

- الكتابة والقتل وجهين لعملة واحدة، الكاتب بيقتل في خياله على الورق، والقاتل بيلبي رغباته وأحلامه على أرض الواقع. نشرت أول رواية بعد ما قتلت عوني، كنت وقتها في تاني سنة جامعة، ماكنتش فاهم وقتها إن دي رواية، كنت بس عايز أطلع احساسي على ورق، ماكانش ينفع أروح لدكتور نفسي أقوله أنا قاتل، الروايات كانت هي الطبيب النفسي.

نظر تامر إلى الأوراق التي يحملها بين يديه وقال متسائلًا:

- بس في التحقيقات مكتوب إن من الضحايا بتوعك طبيبة نفسية اسمها فلك!

تنهد رحيم ثم قال في أسى:

- فلك كانت واحدة من غلطاتي، كانت واحدة من الأشخاص القليلين جدًا اللي وثقت فيهم، القاتل ماينفعش يثق في حد، زي ما الحاوي ماينفعش يثق في تعابينه، خصوصًا لو التعابين دول من البشر، عمومًا هحكيلك عليها

بعدين، تحب تأكل سيدة؟

أشار بيده لإحدى الثعابين الجالسين في الأحواض الزجاجية، فأجاب تامر بالنفي، ضحك رحيم وهو يلقي بفأر صغير من داخل صندوق قابع أسفل فراشه إلى الثعبان والذي بدوره قام بالتهام الفأر البائس في لحظة واحدة ليكمل بعدها كلامه وأعين تامر معلقة على الثعبان في هلع.

- التعابين كائنات مظلومة، كل الناس واخدة عنهم فكرة إنهم أشرار ومؤذيين، التعابين اللي إحنا عايشين وسطهم أسوأ بكتير من اللي بيزحفوا على الأرض.

- بس انت وقعت في عم حافظ، ولا إيه؟

- حافظ كان أبويا، الإنسان الوحيد اللي حسسني إن ليا عيلة وأهل!

الجريمة الرابعة

القاهرة - ٢٠٠٩

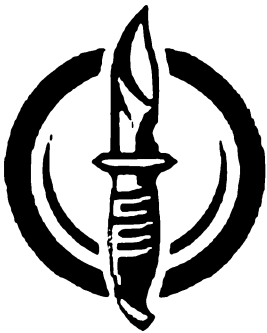

بدأت مشروعيّ عمري في توقيت واحد تقريبًا، وكأن الاثنين كانا يلهمان بعضهما البعض، بدأت مشروعي الأدبي برواية صغيرة، أسميتها "ما رواه الموت"، وكأني كنت أتحدث مع الموت عن هؤلاء الضحايا، الذين بالمناسبة لم أرهم ضحايا أبدًا، كنت أراهم لعنة لا بد من طمسها، شر لا بد من تدميره مهما كان الثمن، حتى وإن كان هذا الثمن خسارة روحي كإنسان القطعة تلو الأخرى. ومشروعي الآخر كقاتل محترف يحمل بين طيات ضحاياه فلسفة خاصة ورسالة سعيت طوال سنواتي الماضية إلى تحقيقها، قتل هؤلاء الأفاعي واقتلاع رؤوسهم من جذورها.

كنت أجد إلهام رواياتي في جرائمي وكنت أتفنن في جرائمي حتى أتمكن من كتابة ما سيروق للقارئ، وبالفعل بعد وقت قصير ذاع الاسمين في سماء الإعلام، حاوي الذي يقتل ضحاياه بأسلوب وحشي قاسٍ ويترك اسمه مكتوبًا بالدم في مسرح الجريمة ورحيم لاشين، الروائي الشاب الذي بدأ في تحقيق نجاحات صغيرة، إلا أنها ملفتة بشكل كبير.

لكل كاتب إلهام ما، وأنا إلهامي كان الدم، كلما قتلت كلما ازداد إلهامي وإبداعي، قمت بخلق شخصية خيالية أسميتها (حاوي)، قاتل متسلسل يعيش في الظلام، ينتقم من المجرمين والفاسدين، يعذبهم، يقتلع عيونهم، ينزع أحشائهم ويقطع أجسادهم ليترك خلفه بعد كل جريمة كلمة (حاوي) فوق جبهة ضحاياه، أو في مسرح الجريمة، كانت كل رواية باختلاف أحداثها وتفاصيلها تحمل نفس البطل، فارس الظلام وقاهر الشر حاوي، وأصبح لحاوي في خلال سنوات قليلة جمهور كبير ينتظر قصته الجديدة وجريمته التالية كل عام.

خلال سنوات قليلة استطعت أن أخلق بطل شعبي خيالي فوق أوراقي، حاوي، هذا البطل المغوار ذا القلب الجسور، ولكن ما لم يكن يعرفه أحد باستثناء عم حافظ، أبي الروحي وأستاذي الذي علمني كل شيء لم أتعلمه في المدارس والجامعات.

- عجبتك الرواية الجديدة؟

- تسلم دماغك يا ولدي، بس حاوي اللي أعرفه هو البطل الحقيقي مش اللي على ورق.

من قال أن الرسامين والمطربين وأشباههم هم فقط الفنانين، لماذا لم تندرج مهنة القاتل مع هؤلاء؟ لماذا لم يعترف أحد أن للقاتل أدوات ومهارات تعطيه لقب فنان بلا أي مجهود؟

تمر السنوات ببطء وكلما مر عام كلما ازداد تسلط أبي، بعدما أصبح في سن المعاش أصبح لا يفارق البيت تقريبًا، يستيقظ كل صباح في السابعة كما اعتاد في سنوات عمله، يعد قهوته بنفسه ثم يجلس في حديقة بيتنا يراقب الأشجار والزهور في صمت، يتناول فطوره في التاسعة ليبدأ بعد ذلك سلسلة من التوبيخ على أي شيء.

كان عم حافظ هو داعمي الأول والأخير، وكم تمنيت كثيرًا أن يأتي هذا الدعم من أبي ولو على سبيل المجاملة، كان يرمقني بنظراته وكلماته المؤذية، حاولت كثيرًا أن أتجاهله، أتعامل معه كطفل لم ينضج بعد إلا أن أساليبه في زجك بمعاركه اليومية أصبحت عبئًا وأمرًا لا يُطاق، لا عجب أن أمي قد تركته، ولكن، لماذا تركتني معه؟ لماذا تركتني في تلك الحياة مع رجل لم أره يبتسم في يوم من الأيام ولو على سبيل الخداع؟!

حتى أتى هذا اليوم الذي كان النهاية للكثير من الأشياء والبداية لأشياء أخرى.

كان يومًا صيفيًا بعد تخرجي من الجامعة بشهر واحد، الصيف في منزل فضل لاشين لا يختلف عن الشتاء في شيء، كل الفصول نبقى في المنزل ولا نتركه، أقضي معظم أوقاتي مع ليان والتي فاجأتني يوم حفل تخرجي بأنها تنوي السفر لإنجلترا لتستكمل دراستها، شعرت في تلك اللحظة أني عدت طفلًا من جديد، طفل تم تركه في الشارع وحده. في رأسي كانت تدور عشرات جمل التوسل كي تبقى، إلا أنني لم أجد ما أقوله وقتها سوى أن تمنيت لها حظًا سعيدًا وأنا أصرخ بداخلي كطفل صغير، رحلت تاركة وراءها طفلًا يعيش على أمل عودتها في يوم من الأيام.

فقط حينما تصبح وحيدًا تمامًا، تبدأ تنبش عن ماضيك لعلك تجد فيه ما يؤنسك.

- بابا، عايز أتكلم مع حضرتك!

قلتها بلسان متلجلج يفضح خوفي.

- خير؟ بدل ما تقعد تتكلم معايا انزل دور على شغل يا نجيب يا محفوظ. لو انت فاكر إنك هتعيش على فلوسي وتقعد تكتبلي في روايات تبقى بتحلم يا رحيم. انت مش هتطول قرش مني غير لما تبقى راجل وتعتمد على نفسك الأول!

- أنا مش جاي أتكلم في كل ده، أعتقد ده الوقت المناسب إني أعرف أمي فين! وليه كل السنين دي ماحاولتش تشوفني أو تعرف أي حاجة عني؟ ولو ماتت

على الأقل أعرف هي مدفونة فين!

بدأ الغضب يتطاير من عينيه وقال بصوت مفزع:

- أنا كام مرة قولت سيرة الست دي ماتجابش في بيتي! بدل ما تشكر أبوك اللي رباك وماجابلكش زوجة أب جاي تسأل على واحدة مافكرتش تسأل فيك من وانت عيل؟ هي دي شكرًا يا رحيم باشا؟ خلاص كبرت وعديت سن العشرين فجاي تواجهني؟

لم أستطع أن أتمالك غضبي ودموعي:

- ليه حضرتك مصمم تخلي الموضوع عنك؟ ليه ماتقولش ان ابنك كبر وعنده أسئلة محتاج ليها إجابات عشان يقدر يعيش حياته بشكل طبيعي؟

- انت عمرك ما هتعيش طبيعي! اقبل الأمر الواقع وعيش حياتك بالشكل اللي اتكتب ليك. نفسي أفهم انت ناوي تبقى راجل امتى؟ ماما إيه اللي بتدور عليها وانت شحط كده!

أين أمي؟ لماذا يرفض دومًا التحدث عنها؟ ما السر الذي يحمله أبي في جعبته ولم يصرح به في يوم من الأيام؟ إحساس بشع يصعب وصفه، لو كان أخبرني في الماضي أنها ماتت كنت سأعيش في راحة كبيرة، حزن ربما، لكن حزن مريح، في سنيني الأولى أخبرني أنها ماتت، لكنه كان يصر دومًا عندما كبرت بعض الشيء أن يخبرني بأنها رحلت وتركتني، يذكرني دومًا أنها أنانية، لم

تفكر في ابنها الوحيد ولا في زوجها المحب، فقط قررت الرحيل دون أن تراجع ضميرها للحظات حتى، إحساس بشع أني لا أمتلك صورة لها، عدا بعض المشاهد المشوشة في رأسي، كل معلوماتي عنها هو اسمها في شهادة ميلادي، كاملة إبراهيم الشافعي.

لسنوات سألت نفسي سؤالًا بلا إجابات، حتى قررت أن أبحث عن إجابتي بنفسي.

- يا بابا ما عشان أنا مابقتش صغير، محتاج أفهم!

لا أتذكر أنه تحدث معي من قلبه قبل هذا اليوم، ولا أتذكر أنه فعل ذلك بعدها مرة أخرى. أخذ نفسًا عميقًا ثم شرع في الحديث عنها، الكاملة التي تركت حياتنا بلا تمهيد أو تفكير في مشاعر الرجلين اللذان تعلقا بها وتركتهما في منتصف الطريق.

- اسمع يا رحيم، كاملة كانت ست أنانية، كاملة حست فجأة إنها ضيعت حياتها مع راجل أكبر منها وطفل ماكانتش عايزاه، بمنتهى البساطة قررت إنها مش عايزة تكمل، بمنتهى البساطة شافت إنها عايزة تعيش الحياة اللي بتتمناها، ماقدرتش أقف في طريق سعادتها، طلبت منها إنها تسأل عليك، ولكن من يوم ما مشيت وهي مافكرتش حتى في مرة تعرف انت عامل إيه في حياتك، عشان كده أنا عمري ما كنت مبسوط في حياتي، عشان كده أنا مش إنسان طبيعي يا ابني.

للمرة الأولى، أشعر بالشفقة على والدي، للمرة الأولى أشعر بأي مشاعر، أيًا كانت، تجاه هذا الرجل، هو ورغم قسوته لم يتركني، لم يتخلَّ عني، قاسيًا ربما، ولكن قسوة لم تؤل به إلى الرحيل.

- انساها يا رحيم، النسيان صعب بس راحة في أوقات كتير.

كانت تلك الليلة هي الأولى التي خلدت فيها إلى النوم بدون أن أرى كابوسي المتكرر، لم أرَ الطفل، لم أرَ بحر الدماء، كانت ليلة تقليدية كليالي سائر البشر، إلا أنه كان للحلم بديل، حلمت بالجزء الثاني من الحلم؛ سلم صغير، قبو يقبع في منتصفه مقعد حديدي أشبه بالكرسي الكهربائي الذي يستخدمونه في عمليات الإعدام، صوت الأغنية يعلو بشكل مزعج ومخيف، يصرخ فرانك سيناترا:

For what is a man, what has he got?

If not himself, then he has naught.

قمت من فراشي ليلتها مفزوعًا، هل ما رأيته للتو رسالة من أحلامي؟ لماذا لم أدخل لقبو منزلنا من قبل؟ أدركت أنه مغلق منذ أعوام، أدركت أنني أعيش حبيسًا في غرفة واحدة، وأبي لا يسمح لأحد أن يقتحم مملكته الخاصة، خصوصًا القبو الذي كان من ضمن قوانين ممنوعاته غير المفهومة، ماذا تريد أن تخبرني يا عقلي؟ ماذا تريدين أن تتذكري يا ذاكرتي البائسة؟

بخطوات مترنحة مشيت باتجاه قبو البيت، مغلق بعشرات الأقفال الحديدية، أُصبت بخيبة أمل. تُرى ماذا تخبئ يا أبي خلف هذا الباب اللعين؟

***

- وعرفت بعد كده إيه اللي ورا الباب يا رحيم؟

- عرفت، ويا ريتني ما عرفت.

***

انتظرت لأسابيع فرصة واحدة كي أدخل القبو، أبي لا يغادر المنزل تقريبًا، كان قد مر عامان على تلك الليلة التي تحدثنا فيها عن أمي، ومنذ ذلك الحين عاد مرة أخرى إلى صمته وكآبته.

بدأت عملي وقتها في إحدى المدارس الخاصة مدرسًا لمادة الفلسفة، كان أبي يستهزئ دومًا بمهنتي، لا يعجبه كوني عاطل، ولا يعجبه حتى اختياري لمهنتي، يراها وظيفة لا تصلح إلا للإناث.

- مش كنت دخلت حقوق وكملت مسيرة أبوك؟ رايح تشتغل شغلانة حريمي؟

- يا بابا أنا بحب اللي بعمله، نفسي مرة تفتخر بأي حاجة بعملها!

لم أهتم يومًا بكلامه إلا أن كلماته كانت تترك جرحًا لا يلتئم في قلبي، مفهوم الرجولة لديه كان مختلفًا عن الجميع.

مَن في هذا العالم يرى الرجولة في ذبح حيوان مسكين؟

كنت أتجاهله كي أتمكن من البقاء على قيد الأمل، كنت أجد مع الأطفال سعادة لا توصف، كنت أنسى خلال ساعاتي في المدرسة هويتي الحقيقية، أعود رحيم، رحيم حقًا بلا أكاذيب أو أقنعة.

كنت أعود من المدرسة في الرابعة لأجد أبي جالسًا في حديقة المنزل في ثبات كالحجر، يشرب قهوته ويدخن عشرات السجائر، أشبه بأسدٍ عجوز فقد مملكته بعدما أصبح على المعاش، فقط ما تبقى له عرشه المهترئ، يتشبث به حتى يشعر ولو بقدر بسيط من الحياة والقوة الزائفة.

بعد عدة أيام جاءتني الفرصة، أخبرني أبي أنه سيسافر لعدة أيام مع بعض الأصدقاء في رحلة بحرية للصيد، تظاهرت بعدم الاهتمام، تمنيت له رحلة سعيدة، وفور أن غادر المنزل كنت مستعدًا لتحطيم هذا الباب والسر الذي يحمله خلفه.

ساعات طويلة لم أتوقف فيهم عن تحطيم الباب بكل ما أوتيت من قوة وعزم، كان أقوى مما كنت أعتقد، وكأني أحطم بابًا من جهنم. وفور أن انتهيت رأيت كابوسي الأخير وجهًا لوجه، نفس السلم، نفس القبو، وبخطوات خائفة بدأت أهبط السلم حتى رأيت مشهدًا مريعًا، مشهد لم تنسَه عيني طوال حياتي حتى يومنا هذا.

ظلام دامس يملأ المكان والقلب، وكأني دلفت إلى قبو من الجحيم، رائحة الرطوبة والعفن تملأ المكان، جدران القبو مغطاة بلونٍ ترابي باهت، ألواح خشبية متهالكة ومتفاوتة الحجم متراصة في أحد الأركان، تتدلى حبال غريبة المظهر من سقف القبو تحمل أجسامًا مخنطة مرعبة، العشرات من الحيوانات المشوهة مخنطة وملقاة بإهمال فوق طاولة خشبية متسخة، عيونهم الملونة تبدو وكأنها تراقب أي زائر للقبو، عرفت في تلك اللحظة سر حب أبي لرحلات الصيد التي لا تنتهي. في أحد أركان الغرفة وجدت العديد من أدوات التحنيط الملطخة بدماء جافة، تمتلئ الرفوف بأدوات الجراحة، الصمت يسود المكان بشكل مخيف، فقط صوت طقطقة خافتة لباب القبو وكأن أرواح تلك الكائنات تحاول الفرار، لم أعتقد أني عشت طوال حياتي فوق تلك الغرفة دون أن أشعر بما يدور بداخلها ولو لمرة واحدة!

عدد الحيوانات المخنطة والمعلقة فوق حوامل معدنية يصعب عدها، إلى جانبها سكاكين حادة ومشارط عديدة، بالإضافة إلى الكثير من الحقن وأوانٍ زجاجية مليئة بمواد كيميائية غريبة الشكل، كل هذا ورغم إثارته للاشمئزاز لم يكن أكثر ما أثار انتباهي، في نهاية الغرفة كان يوجد جهاز غريب يشبه المبرد، إلا أنه كان شفاف اللون، في البداية لم أستشف ما بداخله أو ماهيته، إلا أنني عندما اشعلت إضاءة القبو شاهدت المشهد الأبشع في حياتي،

المشهد الذي لم أنسَه أبدًا، بداخل المبرد كانت توجد امرأة جميلة، ترتدي فستانًا أبيض، مجمدة كقطعة من الجليد. يشع الجهاز ببرودة لا تطاق، حتى أني شعرت بالبرد يتخلل عظامي وعروقي، أعلم مَن تلك المرأة، تزورني دومًا في أحلامي، إنها كاملة، أمي التي رحلت وتركتني وحيدًا في طفولتي.

أتذكر ملامحها جيدًا، أتذكر ابتسامتها الصافية حتى وإن كان قد مرت سنوات طويلة على آخر لقاء بيننا، أتذكر تفاصيل هذا اليوم بالتحديد لسبب أجهله، في المشهد الذي اتذكره في خيالي كنت أجلس بين ذراعيها، كانت تحمل في يدها صورة فوتوغرافية لمدينة إسطنبول، أخبرتني أنها تتمنى زيارة تلك المدينة الساحرة، ابتسمت وهي تضمني إلى قلبها أكثر وتقول في سعادة:

- في يوم من الأيام هحدك ونروح هناك..

أفقت من تلك الذكرى، سقطت أرضًا، يرتجف جسدي، أشعر بالاختناق، بحثت كالمجنون في جيوبي عن بخاخة الربو، أغمضت عيني بعدها لأتذكر تلك الذكرى وهذا الكابوس الذي طالما زارني لسنوات طويلة، كنت وقتها ابن الخامسة، أجلس في غرفتي مع أمي نلعب سويًا بالمكعبات، كانت تبتسم لي في حب، تلعب في شعري وتضحك مثل الملائكة، كنا نستمع لمطربها المفضل، فرانك سيناترا، إلا أن تلك السعادة لم تدم طويلًا، دلف أبي في غضب، يحمل بين يديه مسدسه، أمسك بأمي من شعرها

وقال صارخًا في وجهها:

- عايزة تاخدي الولد وتهربي يا كاملة!

قالها وهو يصرخ في وجهها كالثور الهائج.

- سيبني يا فضل! الحياة معاك بقت مستحيلة! سيبني آخد ابني وأمشي، اعمل حاجة كويسة في حياتك وطلقني!

- شكلك نسيتي انتِ متجوزة مين! مش فضل لاشين اللي يتساب..

- يا فضل باشا يا عظيم، خلي في قلبك شوية رحمة، ده انت حتى مستشار! اعدل معايا زي ما بتعدل مع الناس!

وضع وجهها بين كفيه وقال بطريقة أثارت الرعب في قلبها:

- الناس كلها حذرتني، كله قال يا فضل بلاش تتجوز واحدة أصغر منك بخمستاشر سنة، بس طلع الحب أعمى بجد، قولت لنفسي إني هخلي الحكاية دي تكمل، قولت لنفسي طالما بنحب بعض يبقى العلاقة دي هتنجح مهما حصل!

- بس أنا حبيتك يا فضل! حتى لو كنت أكبر مني بتلاتين سنة، أنا برضو حبيتك. بس من يوم ما اتجوزنا وانت معيشني في حزن، زمان وعدتني إني هبقى أسعد واحدة في العالم، قولتلي يوم ما دخلت الفيلا دي إنها هتبقى مملكتي، وإني هعيش فيها للأبد في سعادة وراحة

بال، صدقتك! ومشيت معاك طريق من غير تفكير. جاي دلوقتي تلومني؟ بقيت أنا الغلطانة؟

- الحياة مش كلها هزار وضحك يا كاملة هانم، وظيفتي ومركزي يخلوني أعيش بشكل معين مش أي حد هيستوعبه، وهقولهالك تاني، مش فضل لاشين اللي يتساب.

أمسك بشعرها بقبضة أشد، حاولت الفرار إلا أنه عاجلها بلكمة أبلمت حركتها. أراقب المشهد وأنا أبكي في ذعر وعدم فهم لما يحدث، وضع المسدس في جيبه، ربت على رأسها، قرب وجهه منها وقال بهدوء مفاجئ:

- ها؟ خلاص هنعقل ونسى موضوع؟

- لا يا فضل.. هتطلقني.. وهاخد رحيم ونمشي من هنا..

لم يمهلها الفرصة لتكمل كلامها، أخرج سكين الطعام من جيبه الآخر وغرزه في رقبتها بلا رحمة، نصل حاد اخترق جسدها النحيل ليغرق دمها وجهي البريء، بكيت بحرقة حتى فقدت الوعي، وحينما استيقظت كنت قد نسيت كل شيء حدث، أصبت بصدمة عصبية لأسابيع، كان أبي وقتها يقوم بدور الطبيب والملاك الحارس، وعندما استردت صحتي أخبرني أبي أن أمي قد تركتنا ورحلت باحثة عن حياة جديدة.

***

كان تامر يدون ما يرويه حاوي والدموع تملأ عينيه، يتخيل كل ما يقوله حاوي، يتخيل كل التفاصيل. إن كان حاوي ماهراً في شيء آخر غير القتل فبالتأكيد مهارته الاستثنائية في الحكي، فقط من يعيش الموت قادر على أن يرويه بكل براعة، فقط من تجرع العذاب قادر على أن يأخذك معه إلى أعماقه، وإن كنت لا تعرف السباحة فأنت هالك لا محالة في عالم رحيم الحاوي، تكفي نظرة واحدة من عينه لترى العالم بلا ألوان، لترى الموت يبتسم لك بوجه ساخر قمئ.

- ازاي قدرت تواجهه؟

سأله تامر بجسد يرتعش خوفًا وحماسًا.

- فضلت يومين مش بسيب البيت، مش بروح الشغل، مش باكل ولا بشرب، عايش في ثبات أشبه بالموت مستني رجوعه، كنت حضرت كل حاجة قبل ما يرجع، كنت خلاص مخطط لكل حاجة، ساعة الصفر كانت تفاصيلها جاهزة في راسي واللي بعد كده كمان، يوم رجوعه هو اليوم اللي أعلنت فيه بشكل رسمي نهاية حكم فضل لاشين وبداية عصر جديد، في مملكتي! في لحظة في حياتنا بتخلينا نقول إننا ماينفعش نضعف تاني مهما كان التمن ومهما كانت العواقب.

عاد أبي بعد ثلاثة أيام، يحمل حقيبة كبيرة لحفظ الطعام، في الأغلب ممتلئة ببعض الحيوانات البائسة التي

ينوي تحنيطها، تجمد الدم في عروقه لرؤيته ما حدث لباب القبو، ترك كل ما في يده وهرع للأسفل ليرى ما حدث، كل شيء في مكانه كما تركه، الأمر الذي أثار قلقه بشكل أكبر، وبينما هو يستعد ليستدير صاعدًا للأعلى ليبحث عني، عاجلته بضربة فوق رأسه بإحدى الأخشاب الملقاة في القبو أسقطته أرضًا مغشيًا عليه في الحال، وحينما استيقظ بعد عدة ساعات، وجد نفسه مكبلًا بالكامل فوق الطاولة الخشبية التي يستخدمها أثناء عملية التحنيط. بدأ يزمجر في غضب، ينظر إليّ بعيون تستعد لتفترسني، الشر يتطاير من عينيه حتى أني شعرت بالخوف والقلق منه رغم أني أراه مكبلًا بوضوح أمامي.

- انت اتجننت يا رحيم؟ بتربط أبوك يا كلب!

قالها بنبرة لم أعهدها من أبي طوال حياتي، قالها وكأنه يستغيث، كأنه يشعر بالرعب ينبش قلبه للمرة الأولى في حياته، وكأن عقله وقلبه في صراع وعدم تصديق لما يحدث في تلك اللحظة الفاصلة في تاريخه الأسود.

- اتجننت؟ ليه؟ هو أنا اللي مجمد جثة مراتي عشرين سنة؟ ولا أنا اللي مفهم ابني إن أمه سابته وهربت وكرهته فيها طول حياته؟

- انت مش فاهم حاجة. أمك كانت عايزة تسيبك وتمشي! أنا عملت كل ده عشانك!

يحاول أن ينقذ نفسه بأي طريقة ممكنة، فما كان له

سوى أن ألقى بالورقة الأخيرة، ورقة الأب المضحي الحنون، إلا أنها كانت ورقة محروقة قبل حتى أن ينتزعها من دهاليز أكاذيبه.

- حتى وانت بتموت لسه بتكدب؟ لسه مش عايز تعترف لمرة إنك غلطان ودمرت حياتي؟

- طب فك الحبل ده وخلينا نتكلم، هعوضك، هاخدك ونسافر أي مكان! أبوك يحبك يا رحيم!

نظرت إليه بعين دامعة، لكنها ليست عينًا نادمة ولا حزينة، ليتك أخذتني معك في يوم من الأيام لإحدى تلك السفريات الكثيرة، ليتك جعلتني أشعر أني لست يتيمًا ولو على سبيل التغيير، تمنيت لو كان أبًا طبيعيًا، أبكي على فراقه يوم وفاته، أحمله والألم يعتصر قلبي لمثواه الأخير، ولكنه اختار ألا يكون كسائر الأباء. ربما لو كنت فعلتَ خيرًا لهذا الطفل المسكين في يوم من الأيام لكان وجد في قلبه شيئًا يشفع لك أفعالك.

- ما انت هتسافر يا بابا، بس الرحلة دي هتسافرها لوحدك.

- لا يا رحيم، أبوك يحبك، مفيش ابن بيقتل أبوه!

- ومين قالك إن ابنك هو اللي هيقتلك!

وكأن روحًا شريرة تمكنت مني في تلك اللحظة، أكاد أجزم أني شعرت بملامح وجهي تتغير، حتى صوتي.

ابتسمت، أخرجت السكين من جيبي في هدوء، رأيته يموت من الرعب قبل أن تفارق روحه جسده العجوز، أردت أن أمتعه بكل لحظة من موته، أردت أن أجعله يحضر العرض الخاص لنهايته بلا فواصل، قمت بتقبيله قبلة الوداع، ولكن بنصل السكين، وفي ثوانٍ أصبح المستشار فضل لاشين، المرحوم فضل لاشين.

- حاوي هو اللي هيعمل كده..

غسلت يدي جيدًا مرات عديدة ثم فتحت اللابتوب، وفي موقع البحث كتبت بكل بساطة (التحنيط للمبتدئين)، كنت قد اتخذت قرار تحنيط أبي قبل أن أقتله، لن أتركه ينعم بنومة هادئة مريحة تحت التراب، لا بد أن يتذوق ما فعله بأمي، سيعيش إلى جانبها، يؤنس وحدتها إلى الأبد، هذا أقل ما يستحق من عقاب. لمدة ست ساعات جالست اللابتوب أعرف منه كل ما أريد معرفته عن فن التحنيط، وقد سهل أبي عليّ هذا الموضوع بوجود معمله المجهز، لم يكن يتخيل أبدًا أن تلك الأدوات اللعينة ستكون أدوات نهايته.

قمت بتجريده من كل ملابسه استعدادًا لإحراقها فيما بعد هي وكل متعلقاته، وضعت أمامي كل ما أريد من أدوات ومواد لازمة، بدأت أولًا بتنظيف جسده بقطعة من القماش الناعمة ومحلول التعقيم لأزيل كل بقع الدم من فوق جسده الضخم، بعدها وباستخدام سكين حاد قمت بفتح معدته وشرعت في إزالة كل أعضائه الداخلية

وإلقائها في وعاء كبير، وبعدما تأكدت من أنني نزعت كل شيء، قمت بحقن جسده بمحلول الفورمالديهايد كي يحفظ جسده دون أن يتعفن، رغم أن مشاهدة جسده يتعفن لم يكن خيارًا سيئًا أبدًا، وفور أن انتهيت استعنت بمواد التجفيف لأستخلص الرطوبة من جسده، لأبدأ بعدها في الفقرة التالية، الحشو، تمامًا كدمية قطنية بخسة، كان فضل لاشين مستلقيًا أمامي فارغ تمامًا كحصالة خالية من المال، بدأت في حشو جسده بكل ما طالته يدي، وضعت بداخله بعض القش، بعض القطن وبعض الإسفنج حتى أصبح كاللعبة الجديدة.

تلك كانت جريمتي الأولى والأخيرة التي لم أشعر فيها بضيق التنفس، والجريمة الوحيدة التي نفذتها بمزاج رائق كموسيقيّ يعزف على أوتار آلته المفضلة، لتأتي بعدها الخطوة الأمتع، خطوة التلوين. استخدمت خليطًا من الأصباغ الزيتية والألوان الأكريليك باستخدام فرشاة التلوين، اخترت اللون الأسود، لون قلبه، شرعت في تلوينه حتى أصبح كجثة محروقة، قمت بتسخين بعض الشمع ورسم علامة العدل فوق صدره لعله يجد العدل في عالم آخر، وتركته ليجف إلى جانب الحوض الذي تستقر بداخله أمي الجميلة، وكم كان المشهد رومانسيًا، فضل وكاملة يجتمعان من جديد.

نفذت خطتي ببراعة، القاتل الذكي لا يترك أثرًا، القاتل الذكي يجب أن يكون ممثلًا بارعًا. هرعت في اليوم التالي

إلى قسم الشرطة أبلغ عن اختفاء أبي.

- عايز أبلغ عن اختفاء والدي من فضلك..

أسابيع من البحث دون جدوى، لم تفلح قوات الشرطة في العثور عليه، من سيفكر في وجود هذا البائس أسفل منزله كتمثال محنط؟

وفي الأسبوع الرابع، قمت بالخطوة الأخيرة لجريمتي، كتبت رسالة مقلدًا فيها خط والدي وأرسلتها إلى أحد أصدقائه المقربين، رسالة انتحار، مودعًا العالم بكل مرادفات الألم وكراهية الحياة، لم يكن الأمر صعبًا، المنزل يحتوي على عشرات الأوراق بخط يده، ثم أرفقت بداخل الظرف الخاتم الذي كان يرتديه أبي دائمًا، خاتم فضي اشتهر به، نُقش عليه ميزان العدل، كنت قد نزعته عن يده قبل تحنيطه، العدل الذي لم يعرفه أبي العزيز طوال حياته.

زال الخطر، ولكن زادت الكوابيس، الأمر يزداد سوءًا رغم أنني لم أشعر بلحظة واحدة من تأنيب الضمير، كنت مخطئًا حينما ظننت أن بموته ستموت كوابيسي، لم أكن أعلم أن عذابي سيزداد بهذا المقدار، لم أكن أعلم أن هذا الارتياع سيلتهمني ببطء هكذا!

أخبرت عم حافظ عن كوابيسي، أخبرته عن ألمي، وحده يفهم، وحده يستوعب هذا الوحش الكامن في صدري ولا يخشاه.

تمت إجراءات إعلام الوراثة سريعًا، أصبحت بين يوم وليلة من الأغنياء، ورثت الفيلا، أو كما أطلقت عليها "المحكمة"، ومبلغ مالي ضخم أودعته كله في حسابي البنكي. لم أكن سعيدًا كما ظننت، أي شاب في عمري ومكاني بالطبع كان سيشعر بسعادة لا يشوبها شائبة، رحيم المليونير بلا رقيب ولا حسيب للمرة الأولى. فور أن انتهيت من كل ما يتعلق بالميراث كان لدي مهمتان، الأولى كانت الأسهل والأقرب لقلبي، ذهبت إلى النادي، كان عم حافظ جالسًا في مكانه المعتاد، خطوط العجز على ملامحه أشبه بأرض زراعية لا زرع بها ولا ماء، ابتسم بضحكته الصافية فور أن رآني، ضمني إلى صدره النحيل، ناولته الحقيبة التي كنت أحملها وراء ظهري وقلت.

- لم أي حاجة مهمة عندك في الشنطة دي ويلا بينا!

تعجب العجوز وقال متسائلًا:

- يلا بينا على فين يا ولدي! مش أفهم الأول!

- مفيش حاجة محتاج تفهمها، دورك في المكان ده خلص خلاص، انت هتيجي تعيش معايا في الفيلا.

لم أمهله وقتًا للتفكير، لملم في الحقيبة بعض المتعلقات الشخصية وبعض الكتب بالإضافة إلى إلى السكاكين، وفي خلال ساعات قليلة كان عم حافظ يأخذ حمامه الساخن للمرة الأولى له منذ سنوات طويلة. كنت قد اشتريت له بعض الملابس، خلع ملابسه البالية وبدلها

بالجديدة، بدا أصغر كثيرًا عما عهدته بعدما حلق ذقنه.

كنت في انتظاره في حديقتي، مشى باتجاهي على استحياء، تلك كانت المرة الأولى التي أرى فيها عم حافظ كطفل صغير.

- الله الله على الشياكة! ده أنا أجيبلك عروسة بقى!

احتضنني وقال في سعادة:

- مش عارف أقول إيه يا رحيم يا ولدي، جميلك تاج على راسي لا يمكن أقلعه طول العمر، وكرمك وحبك هما نصيبي اللي بحمد ربنا عليه في الدنيا.

- مش محتاج تقول حاجة، من النهاردة ده بيتك زي ما هو بيتي، اللي نفسك فيه تطلبه، انت إديتني الحاجة اللي مهما عملت عشانك مش هيكفيك، إديتني عيلة يا عم حافظ!

المهمة الثانية، كانت التخلص من الكوابيس، عدوي الجديد، العدو الوحيد الذي لا يمكنني قتله وقتما شئت، وبعد بحث طويل قررت الذهاب إلى طبيبة نفسية شابة تدعى فلك، فلك ياسين، كنت قد شاهدت لها العديد من الفيديوهات على اليوتيوب، أسلوبها سلس، هادئة، مريحة، وهذا تمامًا ما كنت أحتاجه وأبحث عنه في زحام رأسي وحياتي.

***

انتهت المقابلة قبل أن يسمع تامر باقي القصة، بدا الحزن واضحًا على وجهه، أصبح يدمن مذكرات حاوي، كشهريار، ينتظر أن تأتي المقابلة التالية كي يسمع جزءًا جديدًا من تلك القصة التي أصبحت شغله الشاغل في هذا العالم. عاد تامر إلى منزله، وقف في شرفته الصغيرة يدخن سيجارة في صمت، يكاد لا يسمع شيئًا من ضوضاء الشارع، ما كان يدور في رأسه من مشاهد كان أسوأ بكثير في تلك اللحظة، يحاول أن يكتب مقاله الجديد، إلا أنه يشعر بأن يده عاجزة تمامًا، تتردد في رأسه جملة رحيم "في لحظة في حياتنا بتخلينا نقول إننا ماينفعش نضعف تاني مهما كان التمن ومهما كانت العواقب".

تنتهي السيجارة فيشعل غيرها، يشبه الأموات، ملامحه خالية من أي إحساس، كان قد اعتزل التدخين منذ سنوات، ولكن الليلة يشعر برغبة ملحة في التهام عشرات السجائر، كان يعتقد في أول الأمر أن حواره مع رحيم لاشين سيكون شيئًا ممتعًا شيقًا، لم يكن يعلم أنه سيرى هذا العذاب في كل صباح ومساء، لم يكن يعلم أن حاوي سيتحول لرفيق كوابيسه التي لا تفارقه.

نظر إلى هاتفه والذي كان على وضع الصامت منذ أن عاد إلى المنزل، فوجد رقمًا غريبًا يتصل به، تجاهله لدقائق إلا أن المتصل المُصر أثار فضوله، أمسك بهاتفه في عدم اكتراث.

- أستاذ تامر الأميري معايا؟

- تحت أمرك! مين؟

- أنا داوود الصيرفي، كنت حابب نتقابل ونتكلم في موضوع مهم.

- موضوع إيه معلش؟ أنا مش فاهم حاجة!

- موضوع بخصوص رحيم لاشين، الحاوي.

في صباح اليوم التالي، كان تامر في انتظار داوود بأحد المقاهي في منطقة الدقي، يرتشف قهوته في نفاد صبر حتى أتاه المراد، اقترب منه داوود وهو يحييه، عرفه بنفسه، طلب قهوته من النادل ليبدأ بعدها حديثه مع تامر الذي كان ما زال نصف نائمًا من أثر السهر الليلة الماضية منتظرًا معرفة ما يريده هذا الغريب.

- أولًا، بعتذر لو كنت نزلتك بدري، شكلك لسه نايم!

أجابه بصوت ناعس:

- لا أبدًا، أنا بس كنت سهران بخلص مقال. تحت أمرك!

- مش هاخد من وقتك كتير، أنا بدوّر على سفاح اسمه أنوبيس، أكيد سمعت عن جريمة العريس اللي اتقتل ليلة فرحه، وطبعًا جريمة إياد أمير الفنان المشهور! الجدع ده رغم إن سنه صغير بس عبقري.

ابتسم وقال بفخر.

- سمعت عنه طبعًا، إحنا شغلانتنا الحكايات اللي تجيب الهم دي يا باشا. بس أنا ازاي أقدر أساعدك؟

- أنويس دخل بيتي، وهددني وهدد مراتي، وقال إنه ممكن يسلم نفسه لو قابل رحيم لاشين.

- عايز يقابل حاوي؟ طب ليه؟ وبعدين هو ضامن لو قابله في السجن إنه يخرج منه؟ ما أكيد هيتقبض عليه!

- المهم إنه يوافق! أنا عارف إنك بتعمل معاه مجموعة مقالات، وإنك الشخص الوحيد اللي وافق يقابله. أرجوك ساعدني، أنا حياتي وشغلي واقفين على الموضوع ده.

غريبة تلك الحياة! حياة ومستقبل شخصين غريبين متوقفتان على رحيم لاشين، قابض الأرواح! هذا ما ظل تامر يفكر فيه اليوم بأسره، كيف تحولت حياته لكون يدور فقط حول مجرة حاوي؟ الكل يبحث عن الخلاص، الكل يبحث عن فرصة، داوود المسكين يبحث عن فرصة كي يسترد كرامته وأمان زوجته إكليل، وتامر يبحث عن فرصة كي يثبت للحياة أنه ما زال جزءًا منها، ولكي ترى رقية أنه يفعل شيئًا مفيدًا في تلك الحياة، الكل ينتظر شيئًا ما، حتى رحيم ينتظر لحظة دخول عشماوي ليأخذه من يده إلى رحلته الأخيرة على متن خطوط مشنقة الإعدام مع مراعاة فرق الألم بين الثلاث حكايات.

توجه بعدها تامر إلى مقر الجريدة، كان رئيس التحرير في انتظار المقال الجديد، أصبح يدمن مكاسب الجريدة

التي أصبحت تدر عليه مبالغًا لم يكن يحلم بها في يوم من الأيام بسبب قصص حاوي مع تامر، وفور أن دلف تامر إلى الجريدة سحبه الأستاذ صفوت من يده إلى مكتبه وقال في لهفة:

- ها يا تمورة يا حبيبي، طمني، فين المقال الجديد؟

أخرج تامر من حقيبته بعض الأوراق وأشار لها في سعادة:

- جاهز يا رياسة، بس شخلل عشان تعدي..

ضحك صفوت وقال في سخرية:

- هو سفاح بشر وانت سفاح فلوس. حاضر يا سيدي، جهزت عنوان للمقال؟

- اكتب عندك يا ريس، أسرار يرويها رحيم الحاوي لأول مرة عن قتله لوالده.

لمعت عيناه، أمسك صفوت بسماعة هاتف مكتبه دون أن يقول أي شيء لتامر، ضغط بعض الأزرار وقال:

- ظرف فيه خمستلاف جنيه يبقى على مكتبي حالًا للأستاذ تامر العبقري.

***

في المقابلة التالية، كان حاوي منهمكا في الكتابة، دلف تامر إلى زنزانته يحمل نسخة من الجريدة، ألقى عليه

السلام، فأغلق كراسته ووضعها أسفل وسادة فراشة، مد يده لتامر مصافحًا إياه، ثم قال:

- عنوان مقالك مخليني بلعب دور الشرير في الحكاية!

ابتلع تامر ريقه وأجاب بسرعة بديهة الصحفي:

- العنوان دوره يشد، بس اللي هيقرأ المقال هيعرف إنك بطل يا حاوي اط، بطل مارضيش يسكت على اللي حصل لأمه.

- عمومًا حاول تختار عنواينك بشكل أحسن من كده. زمان كنت بقعد بالشهور أختار اسم روايتي، المهم لما تبيع، تبيع بشرف.

شعر تامر بالإحراج وقال: أوعدك، بس ليا عندك طلب..

- طلب غير إني بقعد معاك في الأيام الأخيرة من حياتي؟ ده أنا حتى لسه ماطلبتش منك الطلب اللي قولتلك هيبقى مقابل حكاياتي معاك!

- المرة دي الطلب مش ليا، سمعت عن أنوبيس؟

- العيل اللي ماشي يقطع في رقاب الناس ده؟ سمعت عنه بس ماعرفتش تفاصيل.

- أنوبيس طالب يقابلك، هدد الظابط اللي متولي قضيته ودخل بيته، وقال إنه مستعد يسلم نفسه بس يقعد معاك الأول.

- يقعد معايا أنا؟ ليه؟ عمومًا سيبني أفكر.

الجريمة الخامسة

كابوس أبي لا يفارقني، تلك كانت المرة الأولى التي أدخل فيها لعيادة نفسية، تمامًا كالأفلام، شيزلونج أسود من الجلد، مقعد زهري ضخم جلست عليه فلك، بعض البخور التي تحمل رائحة اللافندر وجوز الهند ومشغل موسيقى تنبعث منه معزوفة لشوبان، كانت فلك رائعة الجمال، تكبرني ربما بخمسة أعوام على الأكثر، شعرها قصير حتى أذنيها، جسد ممشوق كعارضات الأزياء، وابتسامة هادئة لا تفارقها.

- حابب نتكلم عن إيه يا رحيم؟

كنت متوترًا للغاية، تعجبت من هذا القدر من الكسوف الذي تخللني في تلك اللحظة.

- مش عارف، أنا أول مرة أدخل عيادة دكتور نفسي.

أمسكت بقلمها وقالت وهي تبتسم في ود:

- تعالى نبدأ بشوية حاجات هتخلينا نعرف بعض اكتر، احكيلي عن هواياتك.

كنت وقتها بصدد نشر روايتي الجديدة، حكيت لها عن شغفي بالكتابة، أخبرتها أن العالم الوحيد الذي تمنيت أن أعيش به للأبد هو عالم الروايات والقصص، أخبرتها عن حماس الناشر لروايتي وأن الكتابة هي ملجأي الوحيد من العالم وقسوته.

- عمري ما كان عندي حد أقرب ليا من الكتب، يمكن عشان كده ماشوفتش نفسي غير كاتب!

"أو قاتل متسلسل". قلتها بيني وبين نفسي، كانت ودودة بالدرجة الكافية التي جعلتني أتحدث معها بلا قيود حتى، وإن كنت أحتفظ بتفاصيل كوارثي لنفسي، أخبرتها أني لا أجد سعادتي إلا من خلال أحداث الروايات، وأني أستعد لنشر عملي الأول. ابتسمت وسألتني عن القصة، أخبرتها بلا تفكير

- البطل اسمه حاوي.

- حاوي؟ اسم غريب ومش مألوف!

لم أرِد أن أخبرها السبب الحقيقي وراء الاسم، ولكن لحسن حظي كوني روائي ساعدني على أن أختلق قصصًا

بلا أدنى مجهود.

- البطل والدته كانت نشالة، فضلت تشتغل نشالة حتى وهي حامل في ابنها، وفي يوم وهي في الشهر التاسع نزلت تنشل في جنينة الحيوانات، المهم وهي بتسرق فيه ناس شافوها، بكل طاقتها بدأت تجري، جالها الطلق، دخلت استخبت في جنينة متحاوطة بسور عالي، بس من حسن حظها السور كان فيه فتحة قدرت تدخل منها، فضلت لحد بالليل مستخبية من الناس والأمن، بس لما قررت تقوم تهرب اكتشفت حاجتين، الأولى إنها خلاص بتولد ومافيش حل غير إنها تولد نفسها في مكانها، والحاجة التانية إن الجنينة اللي دخلتها تبقى جنينة التعابين.

- وبعدين؟

- تاني يوم الصبح سمع حارس التعابين صوت عيل بيصرخ، دخل لقى الأم ماتت والعيل التعابين محوطاه من غير ما تلمس شعرة منه أو تعمله أي حاجة! ومن ساعتها وهو اتسمى حاوي.

لمحت الانبهار على وجهها، قمت بالتصفيق لنفسي في صمت، شعرت في تلك اللحظة أن تلك الفكرة قد تكون مشروع روائي قادم، ابتلعت فلك الطعم وأعجبتها الفكرة للغاية، كنت أقابلها بهوية مختلفة خلقتها في خيالي، إلا أن مجرد الكلام معها والحكي كان يريحني بشكل كبير.

***

- طيب ليه قتلتها؟ مش بتقول ساعدتك؟

قالها تامر متعجبًا.

- عشان ساعات بنلاقي نفسنا بنضعف قدام ناس معينين فبنحكيلهم أكتر من اللازم، بيشوفوا المنطقة الهشة من شخصيتنا، بيشوفوا الجزء اللي بنحاول دايمًا نداريه عن العالم كله، ولما بيعرفونا أوي بيتلكونا أوي.

- بس على حسب كلامك انت كنت بتتعامل معاها بهوية تانية أو قصة غير قصة رحيم لاشين!

- في الوقت ده رحيم كان عايز يخرج للنور، ماكانش عايز حاوي يتملك منه، وقد إيه كان غلطان!

***

لا تشارك سرك مع أحد، سرك ملك روحك فقط، سرك ملك نفسك لا الآخرين. وفي تلك اللحظة المفعمة بالسعادة والراحة نفسية قمت بغلطتي الأولى، شرعت في مشاركة سري مع شخص آخر فقط لشعوري تجاهه بالأمان، رغم أني أعرف تمامًا أن الأمان كذبة كبيرة في عالم لا يعرف سوى الخداع، عالم لا يمكن البقاء فيه إلا لو كنت حاويًا يعرف كيف يروض الثعابين اللعينة.

لماذا لم أفكر للحظات أن فلك مثل الجميع؟ لماذا ظننت أنها ستكون مختلفة عن كل هؤلاء المقنعين والمزيفين؟ ألعن قلبي الذي لم تتجرد منه المشاعر تمامًا رغم كل شيء.

في تلك الحياة، ما أن يعرف الناس ما نحن قادرون عليه أو ما نخفيه في قلوبنا، حتى يبدأوا بالتلاعب بنا وبمشاعرنا.

أصبحت زبونًا دائمًا لعيادتها، ثلاثة أعوام مرت وأنا حياتي أهدأ بكثير لوجودها هي وحافظ في تفاصيل يومي، أصبحت حياتي روتينية طبيعية، أستيقظ كل صباح في السابعة، أعد قهوتي المفضلة من البن الغامق المحوج، أجلس في الغرفة الزجاجية المطلة على حديقتي، أكتب من الثامنة وحتى العاشرة وأنا أستمع لموسيقاي المفضلة. يستيقظ حافظ العجوز في العاشرة والنصف، نتناول فطورنا سويًا، يقضي يومه في غرفة المكتبة بين أحضان الكتب واكواب الشاي، وأنا أقضي أغلب وقتي أمارس هوايتي الجديدة، التحنيط. أنتظر بشغف موعد فلك الأسبوعي، أصبحنا أصدقاء، أو هكذا كنت أعتقد، هي الوحيدة التي شاركتها هذا الشعور بالرغبة في قتل كل ظالم أو شرير، أخبرتها أن العالم سيكون مكانًا أفضل بكثير إن تخلصنا من بعض الأشخاص الذين لا دور لهم سوى تحويل حياة الآخرين لجحيم.

كانت فلك قارئتي المفضلة، والناقدة الأفضل في هذا العالم، أسمع رأيها باهتمام، تشاركني نجاحاتي الصغيرة، دائمة الحضور في كل حفلات التوقيع والمناقشات، ثلاث سنوات من صداقتنا أسفرت عن صدور ثلاث روايات لي، تجلس دومًا في الصف الأول كأُم تدعم

ابنها، احببتها من كل قلبي، هي من جعلتني أحب رسم التاتو على جسدي، كانت تخبرني دومًا أن كل وشم نرسمه بمثابة تجربة أو قصة يجب أن تبقى معلقة على أجسادنا إلى الأبد، لذلك كنا نذهب كل بضعة أسابيع لأحد أصدقائها من رسامين التاتو لنقوم برسمة جديدة، إلا أن أكثر ما كان يجذبني كي أطبعه فوق جسدي هي رسومات الثعابين، رأيت فيها حبي لليان وافتقادي لأمي.

في عيد ميلادي السادس والعشرين، أهدتني ثعباني الأول، من فصيلة العريد الأسود، وبسببه تعلمت كل شيء يخص رعاية هذا الكائن الساحر، أخبرتني بأنها أسمته (شادو)، لأن لونه ينسجم مع الظلام بشكل كبير، ولأنها رأت فيه غموضي وقوتي.

- ماينفعش بطل رواياتك يبقى اسمه حاوي ويبقى المؤلف مابيربيش تعابين!

كانت استثنائية في جمالها، استثنائية في هذا الشعور الغريب بالراحة الذي كنت أستمده منها كلما تحدثت معها، واستثنائية في ذكائها المبالغ فيه، كانت بالفعل الصديق الوحيد، والشخص الوحيد الذي ساعدني كي أتخلص من كوابيسي. وفي أحد الأيام وبينما نحن جالسان في جلستي بعيادتها، قالت بلا تمهيد:

- رحيم، مش إحنا صحاب؟

لم أفهم السؤال في بادئ الأمر، لم أفهم لأنها تعلم تمام

العلم أنها صديقتي الوحيدة، وأنها هي وحافظ عائلتي الوحيدة.

- إيه السؤال الغريب ده يا فلك؟

- طيب مش الصحاب ممكن يعملوا أي حاجة عشان بعض؟

أجبتها في نفاد صبر:

- قولي اللي انتِ عايزاه من غير تمهيد..

- رحيم، ممكن تقتل حد عشاني؟

تعجبت من السؤال، لم أستوعبه في البداية، أعلم أني أخبرتها عن رغبتي في القتل، أعلم أني أخبرتها عن حلمي بإنهاء الشر والظلم من هذا العالم البائس، إلا أنني لم أخبرها ولو لمرة واحدة عن أني بالفعل أقدمت على أي جريمة من قبل، لم أحكِ لها عن أي جريمة من جرائمي السابقة، احتفظت ببعض السرية لنفسي. وكم كنت محقًا في هذا.

- أقتل؟ ممكن تفهميني عشان أستوعب كلامك! أقتل مين وإزاي!

- عبد السلام، جوز أمي. أنا عايشة مع الراجل ده في عذاب بقى لي عشر سنين، أنا وماما عايشين في رعب، بخاف حتى نبين قدامه إننا متضايقين من طريقته معانا عشان مجرد إننا بنقول مشاعرنا ده ممكن يحطنا في مشكلة كبيرة، أنا بخاف أنام يا رحيم..

- إزاي عمرك ما حكيتِ لي الموضوع ده قبل كده؟

كنت أحبها بصدق، فلك كانت من القلائل الذي أحببتهم من البشر طوال حياتي، كنت قد أقسمت أني لن أقتل سوى من يستحق القتل، لن أتحول إلى مجرم حتى وإن كنت قاتلًا، سأظل دومًا قاتلًا شريفًا، قاتل صاحب مبدأ.

بدأت أسمع قصتها، عبد السلام شعبان، زوج أمها، حيوان ينتمي لفصيلة فأر الحلد العاري، قبيح ومخيف مثله، له أنياب طويلة، لا يشعر بأي شيء، كريه الملمس والرائحة، أخبرتني فلك أن أمها قد تزوجته منذ أعوام طويلة، في البداية كان يظهر لها الجانب الكاذب من شخصيته، رسم دور الأب الحنون، ليتحول بين ليلة وضحاها لكائن كريه، يتحرش بها، يضرب أمها، يستولي على أموالهما، حتى بعدما تركت منزل أمها واستأجرت شقة خاصة بها يأتي لشقتها ليلًا، يطرق الباب في عنف، يسبها ويهددها، يبقى في سيارته لساعات أسفل عمارتها فقط ليثير في نفسها الفزع طوال الوقت. أخبرتني انها ما عادت تستطيع الحياة في وجوده، ولهذا وبدون الكثير من التفكير قررت التخلص من هذا اللعين كي تنعم فلك بالراحة.

تخلق بداخلنا طاقة لا نعرف مصدرها عندما نقرر أن نحمي من نحب. ولأجلها فقط قررت أن يعود حاوي للعالم مرة أخرى.

بدأت أُراقبه، رجل قارب على الستين، شديد الضخامة، كأنه يخدر من سلالة بوليفيموس، لا يغادر منزله إلا في الساعات الأخيرة من الليل، يستقل سيارة زوجته إلى منطقة وسط البلد كل ليلة ويجلس في بار الجريون لمدة ثلاث ساعات يتجرع خلالهم زجاجة من النبيذ وبعض زجاجات البيرة، ليعود بعدها إلى منزل زوجته، والده فلك، يأكل وينام كحيوان كريه، ليخرج مرة أخرى في مساء اليوم التالي، جرذ ضخم، لا يخرج من جحره إلا ليتصيد ملذاته، بلا حياة وبلا روح.

ميزة عملي الحر كروائي ووريث غني هو أني أمتلك كل الوقت الذي أريده في العالم، أشفق على الكُتاب الذين يعانون من متلازمة الصفحة البيضاء، هؤلاء البؤساء الذين لا يجدون الإلهام في أي شيء، فقط لو تحولت حياتهم الروتينية المملة لحياة مثل حياتي لكانوا سيكتبون كل أسبوع رواية جديدة.

راقبته لأسبوع، وبالفعل لا شيء يتغير في روتينه الممل، وفي اليوم الثامن انتظرته في سيارته، وبمجرد دخوله إلى السيارة مخمورًا قمت بضربه فوق رأسه، ترنح قليلًا إلى الخلف، انتفض في خوف، أمسك بوجهي وأشاح قناعي، وبأظافره الطويلة قام بخدش وجهي، أثار غضبي، أبعدت يده بقوة عني وبالسكين الصغير المحبب لقلبي قمت بقطع رقبته حتى شعرت بحنجرته تلامس نصل السكين، كان ينظر لانعكاسي في مرآة السيارة في خوف وعدم تصديق،

ابتسمت له، واقتربت من أذنيه وهمست قائلًا:

- ده عشان فلك.

حاول أن ينطق إلا أن الدماء هي التي خرجت من فمه بدلًا من الكلمات، بدا مرعوبًا وهو يقابل مصيره، وكأنه كان يرى ملاك الموت في مرآة السيارة، وبدمه كتبت حرف (ح) على جبهته، أردت أن تظهر الجريمة وكأنها جريمة قتل بدافع السرقة، أخذت كل ما في جيوبه من أموال، ارتديت قناعي الأسود وخرجت أركض من السيارة.

ظللت أركض وأنا أضحك في سعادة وانتشاء، كنت قد افتقدت القتل كثيرًا، افتقدت الدماء، افتقدت رؤية المذنبين ينالون العقاب الذي يستحقونه، عدت إلى المنزل لأحتفل بعودة حاوي مع عم حافظ وبخاخة الربو، أصدقائي المخلصون.

اختفيت لمدة يومين، وفي اليوم الثالث اتصلت بعيادة فلك لكي أحجز موعدًا جديدًا، إلا أن الممرضة أخبرتني أن العيادة مغلقة لمدة أسبوع بسبب عزاء الأستاذ عبد السلام، تظاهرت بالاندهاش وسألتها عما حدث فقالت بصوت حزين:

- حرامي قتله في عربيته وسرقه. منهم لله ولاد الحرام دول.

سألت عن موعد العزاء وذهبت في المساء لفلك كي

أطمئن عليها، ما أن رأتني حتى أقبلت عليّ تحتضنني بلا تفكير، توترت وشعرت بالإحراج، تداركت الموقف وابتعدت في خجل، دعتني للجلوس واقتربت من أذني وقالت:

- ماتمشيش، لازم نتكلم شوية بعد العزا.

***

قاطعه تامر قائلًا:

- طبعًا قالتلك إنها ندمانة وإنها حاسة بتأنيب ضمير ولازم تبلغ عنك، عشان كده قتلتها؟

ضحك رحيم في أسى وقال:

- دي النهاية اللي كنت بتمناها، بس فلك للأسف ماعملتش كده.

- أمال إيه؟!

اقترب منه رحيم وقال في جدية:

- خلينا نكمل بعدين، أنا اللي دلوقتي عايز أطلب منك طلب مهم يا تامر..

- لو أقدر مش هتأخر.

- حكم الإعدام هيتنفذ خلال أسابيع، أمنيتي الأخيرة إني أشوف البحر.

بدا عليه التأثر وهو ينطق أحرف كلمة بحر، وكأنه يرى

البحر أمامه مع نطق حروفه، كأنه يشتاق لكل تفاصيل حياته قبل أن يصبح حبيس تلك الزنزانة التي يكرهها حتى وإن كانت زنزانة ملكية. رحيم لاشين ورغم المبالغ الطائلة والرشاوي التي دفعها حتى ينعم بزنزانة فردية بها كل ما يريد من سبل الراحة، لم يشعر لو لحظة أنه على قيد الحياة في محبسه، لهذا تموت العصافير في أقفاصها بلا إنذار!

- البحر؟ ده طلب مستحيل!

- انا أسمع عن صفوت كرم كويس، راجل الحكومة، حبايبه في الدولة كتير، كلمة منه طلبي هيتنفذ بسهولة.

- بس...

قاطعه رحيم برد حاسم أنهى الحوار ليترك الأمر برمته بين يدي تامر:

- من غير بس، مع الأسف لو ماقدرتش تساعدني مش هقدر أكمل مقابلاتي معاك، ساعدني أشوف البحر للمرة الأخيرة في حياتي، كل اللي بحلم بيه إني أشرب قهوتي في إسكندرية على ممشى نادي اليخت.

***

ودعه تامر بعدما وعده بمحاولة لن يتهاون في تنفيذها، خرج بعدها وهي يحمل في جعبة أفكاره الكثير، يريد باقي الحكايات، يريد المزيد من النجاح والمال، وبداخله أيضًا شعور غريب أنه يريد من كل قلبه أن يلبي لرحيم أمنيته

الأخيرة. اتصل بأستاذ صفوت، أخبره ما قاله رحيم، إلا أنه ضحك وقال مستهزئًا:

- مش عايز بالمرة نحجز له ليلتين في الجونة؟

- صدقني يا ريس الموضوع ده في صالحنا، وبعدين هيكون تحت حراسة مشددة.

- في صالحنا إزاي يا عبقري زمانك؟

بمهارته الصحفية وأسلوبه المقنع، قال تامر وكأنه يشرح خطة غاية في الأهمية:

- اليوم ده هاخد معايا مصور من الجريدة، هنسجل معاه الحوار الأخير على شكل بودكاست، هنطلع لايف، وشوف بقى يا ريس لما الجماهير تتفرج من العالم كله على اللقاء الأخير لرحيم لاشين، وينزل الفيديو حصري وعليه عنوان بيقول الحوار الأخير للكاتب الأكثر مبيعًا والقاتل المتسلسل رحيم لاشين.

سكت صفوت للحظات، لحظات يعرفها تامر جيدًا، يحسب مكاسبه ويتخيل الحفاوة ورد فعل الجماهير بينه وبين نفسه، ثم أجابه قائلًا:

- اعتبر الموضوع حصل، إديني أسبوع، تكون كملت معاه المقالات اللي فاضلة وأكون أنا رتبت كل أموري، ابعت لي بس طلبه بالتفصيل في رسالة. سلام.

عاد إلى شارعه يتراقص في سعادة، يدندن بعض

الأغاني، يشعر بانتصار عظيم وقريب، على القهوة المقابلة لمسكنه. جلس بديع صاحب العمارة مع عم صبري يدخنان الشيشة، نظر بديع لتامر بكراهية وقال هو يزفر دخانه بغضب:

- الجدع اللي اسمه تامر ده جاب الناهية معايا يا صبري.

- يا عم حرام عليك، ده واد مكافح وغلبان! وبعدين مش بدأ يدفعلك المتأخر؟ يعني الراجل نيته خير.

إلا أن بديع لم يبدُ عليه الاقتناع، ليجيبه غاضبًا:

- هو أنا هفضل آخد فلوسي قطاعي زي المسلسلات الأفرنجي اللي بنشوف كل أسبوع منها حلقة ولا إيه؟ أنا عايز فلوسي لُكشة واحدة، دول حياله شوية ملاليم معدومين العافية!

- الصبر يا بديع! راعي الناس عشان ربنا يراعيك.

صعد تامر لشقته ليجد داوود جالسًا في انتظاره، منكس الرأس على السلم أمام باب الشقة، تعجب تامر، ألقى عليه السلام ثم دعاه للدخول، أعد لهما كوبين من الشاي، نظر داوود حوله لحال الشقة وقال:

- شكلك عايش لوحدك، شقة العازب بتفضح صاحبها.

- أنا ومراتي سيبنا بعض من زمان، إيه سبب الزيارة الجميلة دي؟

- عملت لي إيه في اللي طلبته منك؟

- اتكلمت معاه وقال هيفكر!

- مافيش وقت للتكفير يا أستاذ تامر! أنوبيس اتصل بيا تاني. أرجوك، انت الوحيد اللي ممكن يساعدني.

***

في نفس اللحظة التي كان يجلس فيها داوود مع تامر في منزله يتحدثان، كان أنوبيس يجلس في أحد مكاتب الكاستينج الشهيرة، بلا قناع، مجرد شاب عادي بين البشر، قيص خفيف وبنطال جينز ونظاره طبية عملاقة أعطته هيئة غريبة ومضحكة، حوله جلس العديد من الشباب الطامحين في دور صغير في أحد أفلام الأستاذ إيهاب شلبي المخرج الشهير، منذ دقائق ناولتهم سكرتيرة المكتب بعض الأوراق لكي يملؤها قبل دخولهم لمقابلة المخرج، كان قد قرأ منذ عدة أيام على الإنترنت أن إيهاب يبحث عن وجه شاب لفيلمه الجديد، وجد في هذا الإعلان فرصة لن تتكرر، ظل جالسًا في هدوء حتى أتى دوره.

كانت الغرفة التي دخلها خاوية باستثناء مكتب صغير جلس وراءه المخرج على مقعد جلدي ضخم يناسب حجمه، وإلى جواره استقرت كاميرا موضوعه فوق حامل حديدي، أشار له إيهاب أن يقف أمامه مباشرةً، سأله عن اسمه، فلم يُجب، أعاد السؤال فقال:

- معلش يا أستاذ إيهاب، حضرتك ليك هيبة تنسي الواحد اسمه.

ابتسم إيهاب في عدم اكتراث وقال بوجه جاد:

- صدقني أنا ياما سمعت من الكلام ده كتير، اللي هيخليك تاخد الدور موهبتك وبس.

اقترب أنوبيس منه عدة خطوات وقال:

- من ناحية موهوب...

أخرج من جيبه خنجرًا صغيرًا شق به قلب إيهاب في ضربة واحدة أسقطته جثة هامدة، مسح الخنجر في ملابسه وأكمل قائلًا موجهًا كلامه لضحيته:

- فأنا موهوب جدًا يا أستاذ.

خلع الكاميرا من مكانها ليضعها في حقيبته الصغيرة ورحل من المكتب بأقصى سرعة قبل أن يدلف للغرفة الممثل التالي.

***

نزل تامر ليوصل داوود الى سيارته، شكره الأخير، ذهب بعدها تامر إلى القهوة، جلس منزويًا كعادته في أحد أركانها، أشعل سيجارة وطلب من القهوجي الشاب أن يحضر له كوبًا من الشاي، انتبه بديع لوجوده فقام من مكانه وجلس أمامه في تحدٍ مستفز.

- بقينا نقعد على القهوة ونطلب شاي وندلع نفسنا! طيب إديني فلوسي قبل ما تدلع نفسك!

سمعه عم صبري الذي أتى مسرعًا موجها كلامه لبديع في انفعال:

- عيب اللي بتعمله ده يا بديع، انت شايف الجدع قاعد ياكل كباب وكفتة! ده طالب شوية شاي!

إلا أن بديع لم يكترث لكلمات صبري وقال بصوت أعلى وهو يدفع صديقه بعيدًا:

- طالب شاي بقى ولا طالب هباب أزرق على دماغه.. الجدع دفع لي ٥ شهور من أصل ١٠ شهور متأخرين! ده غير الجديد! والحق مايزعلش يا جدعان! ولا إيه يا عم تامر؟ حد قالك إني بأجر الشقق دي لله؟

شعر تامر بغصة في معدته، لم يواجه موقفًا كهذا من قبل، يشعر بأنه عاري الجسد أمام المنطقة بأكملها، لا يرى في خياله سوى نفسه وهو يمزق بديع إلى قطع صغيرة وهو يضحك في انتشاء. طرد أفكاره السوداء من رأسه وتماسك حتى لا يبكي أمام الناس، فقط وضع يده في جيبه وأخرج كل ما به من مال بكل بساطة، ناول المبلغ لعم صبري وقال وهو ينظر لبديع:

- دي كل الفلوس اللي معايا، يومين وهجيبلك غيرهم.

جذب بديع الأوراق المالية بعنف من بين يدي عم صبري، اقترب القهوجي واضعًا كوب الشاي أمام تامر إلا أن بديع أمسك بالكوب وألقاه أرضًا ليتناثر الزجاج في كل مكان وقال وهو يهم بالرحيل:

- خسارة فيك شوية الشاي دول! هما يومين يا تامر يا أميري، بعدها ماحدش يزعل مني.

ترك تامر بعدها القهوة ومن فيها هاربًا من أعين الناس، ليدفن نفسه باكيًا في أسى داخل غرفته الحزينة، يلعن نفسه وحياته والقدر الذي وضعه في هذا الموقف.

***

بعد يومين كان لقاءً جديدًا بين أحضان الورق، كان رحيم منهمكًا في الكتابة، دلف تامر إلى الزنزانة بابتسامته المعهودة التي يرسمها قبل نزوله كل صباح، ابتسامه مزيفة اعتاد بعد سنوات العمل والخبرة أن يضعها معه من ضمن إكسسواراته الصحفية، سلاح أبيض لا يضر، يبتسم رغم أنه يحمل بداخله كل معاني الحزن والأسى.

ابتسم رحيم لرؤيته، هذا الغريب الذي أصبح صديقه الوحيد، صداقة يترتب عليها الحكي، يترتب عليها عقارب الساعة، صداقة أشبه برصيد المحمول، مكالمة طويلة يعلم كلٌ من طرفيها أن الرصيد سينتهي عاجلًا أم آجلًا.

وضع رحيم الأوراق جانبًا وقال بلا تمهيد:

- موافق أقابله، بس مش هنا.

سأل تامر في عدم فهم:

- أمال فين؟

- هقابله يوم المقال الأخير، في إسكندرية زي ما اتفقنا.

- وأنا عند وعدي ليك.

ابتسم رحيم في رضا، مد يده لثلاجة صغيرة استقرت بجوار فراشه وقال وهو يناول تامر علبة من العصير:

- خد اشرب شوية عصير. مش عايز تحكي شوية عنك على سبيل التغيير؟

شكره تامر، تجرع بعض من العصير وقال في أسى:

- أول مرة حد يطلب مني أحكي! أنا اتعودت دايمًا أكون ورا الميكروفون مش العكس!

- يبقى نعتبر النهاردا فرصة عمرك. ماتزعلش من سؤالي، ليه دايمًا إحساسي بيقولي إنك إنسان حزين رغم ابتسامتك اللي دايمًا راسمها؟

وكأنه كان ينتظر تلك اللحظة منذ زمن بعيد، شرع تامر في إلقاء كل ما بداخله بين يدي رحيم والذي كان يسمعه في اهتمام حقيقي:

- إحساسك ماكدبش عليك، أنا طول عمري إنسان سلبي، عايش حياتي زي قضيب القطر، الكل بيعدي عليه، الكل بيدوس أكتر وأكتر عشان يوصل للي هو عايزه، زي ما قولتلك أول مرة اتقابلنا، أنا حياتي بهتانة، رقية طليقتي سابتني لمجرد إحساسها إني فاشل، كانت بتعايرني، راحت اتجوزت واحد كنت بعتبره من أعز أصدقائي، انت

متخيل؟ رقية مش بتخلف، وبرضو لما عرفت قولتلها إني هفضل معاها، تقوم هي اللي تسيبني؟

- طيب وصحابك يا تامر؟ دايرة معارفك؟

- صحابي كل واحد فيهم نجح في حياته وطبعًا الناجحين بيكونوا عايزين يبعدوا عن الأمثال الفاشلة اللي زيي، حتى صاحب الشقة، بيعاملني على إني متسول، إهانة ومعاملة ماحدش في الدنيا يستحملها لمجرد إني متعثر ومش قادر أدفع له الإيجار في الميعاد.

سكت رحيم للحظات، وضع يده فوق يد تامر وقال بصوت خفيض:

- ليه ماتغيرش كل ده بإيدك؟ اثبت لكل الناس دي إنك مش فاشل ولا ضعيف!

- أغيره؟ إزاي؟ مافيش حاجة هتتغير.

اقترب رحيم من تامر وقال في هدوء وجدية:

- الإنسان سمعته بتسبقه، حاول تغير السمعة اللي كل الناس عارفينها، تامر الأميري لازم يكون جواه حاوي، لازم يكون عارف مين التعابين اللي لازم يدفنها جوا جحورها.

- يعني أعمل إيه؟

- كل حاوي وله طريقته، فيه حاجات ماينفعش أديهالك بالشوكة والسكينة، أمال ليه الناس بتحب الصيد؟

كان كل الناس راحت أكلت السمك في المطاعم وخلاص! المهم إنك ماتخليش حد يدوس عليك تاني.

- أنا نفسي الناس تشوفني، عايز أحس إني مش شفاف! عارف يا حاوي، أنا من كتر إحساسي بالضعف بفضل أراقب الناس من الشباك، بكون عايز أحس ولو للحظات إني أقوى منهم.

- يبقى الحل إنك تطلع من الشباك مش تفضل مستخبي وراه.

هذا تماما ما كان يريد سماعه، وما كان يخشى سماعه أيضًا. العشرات من الأفكار السوداوية تدور في رأسه مرة أخرى، حاول أن يطردهم جميعًا من رأسه ليقول مغيرًا موضوع الحديث:

- كمل لي حكاية فلك...

الجريمة السادسة

"وأنا كان نفسي في دقيقة

كان نفسي نتكلم وأشرحلك

نفسي أنتهز الفرصة وأحكيلك".

أسوأ أنواع الإيمان هو إيمانك بأول يدٍ تمتد لك وأنت معصوب العينين، في تلك اللحظة نكون في بئر مظلم، بلا أمل، بلا طموح، وبلا توقعات، فقط نمد يدنا، نمدها لعلنا نجد فيها ملاذًا ما، حتى وإن كان ملاذًا كاذبًا، وأسوأ أنواع الكراهية هي كره شخص أحببناه بصدق، وأنا أحببتها من كل قلبي، كانت الملاذ والضوء في عتمة أيامي، حذرني حافظ كثيرًا، كان يخبرني دومًا ألا أثق في امرأة مهما كانت؛ المرأة كائن مخيف، متلون، قادر على امتصاص روحك بكل رضاك.

- الحريم ألعن من الأفاعي يا رحيم يا ولدي، يلدعوك وانت قابل ويسموك وانت قابل، ماتفقش من ضربة الحرمة إلا بعد أما تلف حوالين رقبتك وتبقى من السابقين.

انتظرتها لعدة ساعات حتى انتهى العزاء ورحل الجميع، قمت بتعزية والدتها، أخبرتها فلك أني صديق قديم، ثم استقلينا المصعد أنا وهي لأركب إلى جوارها في سيارتها، تنهدت في ارتياح وقالت:

- مهما قولتلك شكرًا مش هيبقى كفاية!

- المهم إنك دلوقتي في أمان.

أمسكت يدي في حب، ثم فتحت حقيبتها لتخرج منها ملفًا ناولتني إياه، بدأت في تفحص محتواه، الملف ممتلئ باعترافات من مرضاها بجرائم شنيعة قاموا بارتكابها، بعض الصور كان مشطوب عليها بقلم أحمر، نظرت إليها في حيرة حتى أنهت بكلامها حيرتي وقالت:

- دول كلهم عيانين عندي في العيادة، فاكرين نفسهم بشر يا رحيم! الناس دي ارتكبوا جرايم بشعة ودمروا حياة ناس، اللي مشطوب عليهم بالأحمر دول قدرت أتخلص منهم!

- اتخلصتِ منهم ازاي؟

- في اللي اقنعتهم بضرورة انتحارهم بشكل تدريجي لحد ما نفذوا ده، وفي منهم اللي فضلت أزودلهم في جرعات الأدوية لحد ما ماتوا OD! الباقين دول اللي مش نافع معاهم ده ولا ده، دول اللي عليزاك تساعدني نخلص العالم منهم.

قالت جملتها إلا أنني لم أفق من تأثيرها، فلك، الطبيبة النفسية العظيمة التي ألجأ إليها دومًا كي تسمعني، تشبهني تمامًا، تحاول أن تخلص العالم من المجرمين وأصحاب القلوب القبيحة، ابتلعت ريقي وأنا أحمد الله بيني وبين نفسي أنني لم أخبرها أكثر مما ينبغي أن تعرفه.

- انتِ بتقولي إيه يا فلك؟!

وضعت يدها على ذراعي في دلال وهي تقول:

- أنا عمري ما حسيت بالأمان غير جنبك، والعالم كله محتاج يحس بنفس الأمان ده، وبعدين هما مش كتير، بس اللي عملوه يستاهلوا عليه الموت.

- تفتكري موتهم هيصلح الكون؟

- لا، بس على الأقل هيريح ناس كتير يستاهلوا يعيشوا في أمان.

تذكرت جملة حافظ بعدما نفذت جريمتي الأولى: "فيه ناس الموت راحة للي حواليهم قبل ما يكون راحة ليهم".

بلا تمهيد، تحركت بسيارتها إلى منزلي، جلسنا في الحديقة، تحكي عن كل شخص منهم، تحكي عما فعل، هذا قتل أمه كي يسرق أموالها وتلك حرقت زوجها كي تداري مصيبتها وتهرب مع عشيقها، آخرون وآخرون، تحكي وأنا أسمع. عين تراقب ملامحها وهي تروي قصصهم في حزن وكراهية، وعين أخرى تنظر إلى عم حافظ الذي كان ينظر لنا من شباك غرفته في استياء.

- هساعدك، بس اوعديني ماتطلبيش مني أي حاجة زي دي مرة تانية يا فلك!

- أوعدك، شكرًا أوي يا رحيم، أنا بحبك أوي.

قالتها فلم أجب، تعلم تمام العلم أني أحبها، أو ربما هو حب مزيف بفعل ألاعيبها النفسية معي، مجرد وهمٍ

أقنعتني به كي تحصل على ما تريد، وهمٌ علمتني كيف أستخدمه لصالحي، قبّلتني ورحلت، وفي غضون دقائق كان حافظ الغاضب جالسًا أمامي متسائلًا عما يحدث:

- شوف يا ولدي، البيت بيتك والمال مالك، بس انت ضنايا، والأب اللي يشوف ابنه بيغرق ومايمدش يده يبقى يستاهل قطعها، والبت دي حية ملعونة.

أحببت هذا العجوز بصدق، كأنه قرأ ما في رأسي، ابتسمت له وقلت:

- ماتخافش عليا يا راجل يا عجوز، كل حكاية وليها آخر.

أمسك حافظ بيدي، أخذني للقبو الذي هبطناه ببطء كي أتماشى مع طاقته التي كانت تقل يومًا بعد يوم. على الطاولة الخشبية استقر حوض زجاجي كبير لم أره من قبل، بداخله جلس ثعبان كوبرا متحفز ينظر إلينا بعين غاضبة، بدت مخيفة رغم ألفتي للثعابين، نظر إلى حافظ وقال:

- انت عارف مفروض تعمل إيه!

في غضون شهرين انتشرت في الصحف العشرات من الأخبار بشكل شبه يومي، العثور على جثة جديدة لشخص جديد كل عدة أيام في أماكن نائية من القاهرة، الجرائم كلها متشابهة، جميعهم فاقد لجزء من جسده، وجميعهم بعد كشف الطب الشرعي عليهم عثر على سم ثعبان في تحاليلهم للجثث. الجميع يتحدثون عن القاتل المتسلسل الذي

يدعى (حاوي).

كنت أتحدى نفسي، كنت كلما أتممت جريمة جديدة أحتفظ بقطعة من جسد ضحيتي لأحنطها في معملي، تذكار بسيط كي أتذكر ضحيتي للأبد، وإلى جانب الضحية كنت أكتب (حاوي) بالدم. بعض الصحفيون ورجال الشرطة قاموا بالتحقيق معي عدة مرات، يربطون بأسلوب هش غير متناسق بين بطل رواياتي وهذا القاتل المتسلسل الخفي، كنت أخبرهم ببساطة أن بعض المجرمين يتأثرون بشكل كبير بالروايات، تأثرًا قد يجعلهم يتحولون إلى بطلهم المفضل، الجميع بلا استثناء يتمنون أن يصبحوا السيئين في روايات أحدهم، الكل يقدس الشر، الكل يعشق الشخصية الشريرة، ولكن الجميع ينكر، والمضحك أنهم لم يشكوا فيَّ ولو لمرة واحدة، وكأنني لا أمتلك مقومات المجرم المثالي.. تبًا لهم!

أصبح منزلي مثواهم الأخير، محكمة ليلية لا تصدر سوى أحكام الإعدام بلا شفقة ولا رحمة، محكمة أشبه بمحكمة الموتى عند أجدادنا الفراعنة، أصبحنا نمارس خطة لا تتغير، يأتي المريض لعيادتها، تخبره فلك بضرورة حصوله على بعض النقاهة والعزلة الصحية، تقوم بترشيح مكان أسميناه (الملاذ)، منزلي المتواضع، يأتي المريض، يستقر في إحدى الغرف التي لا حصر لها في منزلي، أقدم له مشروب الضيافة، المصحوب بمادة مخدرة أستخرجها من ثعابيني، بعد عدة ساعات يستيقظ المريض ليجد نفسه

مكبلًا في القبو، لتبدأ فلك وأنا معها في عملية التعذيب، إلا أنني كنت من هواة القتل السريع، العين بالعين، وقانون فلك لا رحمة فيه ولا جدال، كانت تنفذ في مرضاها العقوبة بالمثل، تحرق هذا وتشوه هذا، كنت أراقب عينيها في ذعر، أعلم أن لي قوانيني الخاصة، إلا أنني لم أشعر في يوم من الأيام بتلذذ في قتل إنسان، كنت قاتلًا متسلسلًا طيبًا وودودًا.

ذات يوم أحضرت أحد مرضاها وبدأت في تقطيعه حيًا بسكينٍ صغير وهي تدندن أغنية لفيروز في سعادة، لو كانت السيدة فيروز تعلم أنه سيأتي اليوم الذي تتغنى ألحانها في قبو منزلي اللعين ما كانت أقدمت على صناعة هذا التاريخ الفني الحافل من الأساس، كان يصرخ بصوتٍ أرعبني إلا أنها لم تتوقف عن الغناء بلا اكتراث أو مشاعر، ولما شعرت بجنونها يقترب، وأن السحر انقلب بالفعل على الساحر، كنت أنفذ المهام قبل حتى حضورها إلى منزلي، موت سريع، لن أطلق عليه لقب موت رحيم، إلا إن كان المقصد من الوصف اسمي ولا الشعور، كنت أنفذ ما تطلب لكن بأسلوب آدمي، أنفذ مبدأ العين بالعين، ولكن بلا تلذذ وبلا جنون، كنت أستشعر الغضب والاستياء في ملامحها، أصبحت لا أرى سوى اللون الأحمر، في الصباح أكتب كل شيء، أخلق عوالم رواياتي مستوحاة من حياتي اللعينة، وفي الليل أطبق ما أكتب، أعيشه بتفاصيله، وهذا كان خطًا جديدًا.

***

نظر تامر لرحيم وقال متسائلًا:

- كنت بتكتب كل اللي بتعيشه في حياتك؟

- كل كاتب بيكتب اللي بيحسه، وأنا ماكنتش بحس غير بأرواح بتفارق أجسادها، ماقدرش أنكر إن لولا اللي حصل مع فلك ماكنتش هبقى رحيم لاشين اللي رواياته بتتباع في كل مكان في الوطن العربي.

- بس الشهرة دي كانت من أسباب إنك تتكشف، صح؟

- ضريبة النجاح والطمع، كان لازم أدفعها، بس ما انكرش إني كنت بفرح لما بشوف أخبار جرايمي في الجرايد.

***

في تلك الفترة قمت بأكثر من ثلاثين جريمة قتل، هذا بخلاف الجرائم التي كانت تنفذها فلك بنفسها. حتى أتى يوم قررت أن كل شيء يجب أن ينتهي، وأن أسطورة فلك ورحلتها من طبيبة نفسية إلى سفاحة يجب أن تكتب نهايتها، كانت تلك هي الجريمة الأخيرة لها، لم تتركني أنفرد بالضحية وحدي، صاحبت المريض هذا اليوم بنفسها إلى منزلي، أشرفت على عملية تخديره، نظرت لها متسائلًا بينما نحن جالسان في غرفته ننظر إلى جسده النائم عن إصرارها

بمتابعة كل شيء بنفسها، فقالت:

- مدحت الديب، سيكوباتي، سادي، رجل أعمال خمسيني غني، كل ليلة مغامرة جديدة مع بنت جديدة، بعد ما بياخد اللي عايزه منها بيربطها في السرير، وبيفضل يعذبها، يتفرج عليهم والدم سايل من جسمهم وبعدها يسكتهم بشوية فلوس واللي تقرر ماتسكتش كان بيقطع لسانها ويحتفظ بألسنة الضحايا بتاعته. جالي العيادة من سنة، بيقول ضميره صحي، حاولت معاه كتير بس للأسف عمره ما بطل لحد النهاردا. وصل بيه الأمر إنه بقى بياكل ألسنة البنات دي.

لم أقل شيئًا، فقط حملته إلى القبو في استسلام، قمنا بربطه كما نفعل مع كل الضحايا، انتظرناه ليفيق، انتفض فور اكتشافه أن جسده عارٍ تمامًا وأن أمامه تقف فلك تحمل بين يديها سكينًا صغيرًا ونظرة تتشابه تمامًا مع نظرة ملاك الموت في اللحظات الأخيرة.

- دكتورة فلك! إيه التهريج ده! انتِ اتجننتِ!

- مافيش بنت هيحصلها حاجة بسببك تاني.

بدأت في وخز جسده بسكينها الصغير في أماكن متفرقة من جسده، يتأوه في ألم، أصبح جسده في خلال ثوانٍ لمصفاه ضخمة يسيل الدماء من كل ثقوبها، أغمض عينه وهو يصرخ إلا أن فلك اقتربت منه وقالت صارخة:

- افتح عينيك يا مدحت، لازم نتفرج على نفسك وانت

بتنتهي، انت عمرك ما غمضت عينك وانت بتتفرج على أي واحدة من ضحاياك.

لم يستجب، ظل يصرخ، أمسكت فلك بجفنه وبلا تفكير بدأت في تمزيقها بسكين صغير، كان المشهد مثيرًا للاشمئزاز، ركضت إلى حقيبتي باحثًا عن بخاخة الربو، رأيت جفنه يلقى على الأرض مختلطًا بدمائه، ازداد صراخه حتى شعرت بجدران القبو تهتز وفي خلال لحظات خمد جسده تمامًا، مات مدحت بسكتة قلبية، لم يستطع تحمل كل هذا القدر من الألم، لم تتوقف المختلة، ظلت تطعنه بلا توقف في صدره، تضحك في جنون، الدماء تغرق وجهها، في تلك اللحظة شعرت بالخوف منها وقررت وقتها أن نهاية فلك هو أمر لا بد منه.

- كفاية يا فلك! الراجل مات!

أخذتها إلى الحمام، ساعدتها على غسيل وجهها ثم أدخلتها غرفتي كي ترتاح قليلًا، قمت بإكمال الجريمة كما نفعل دومًا، اعتدت أنا وفلك على تنفيذ طقس لا يتغير بعد كل جريمة، نقطع عضوًا من أعضاء الضحية ليزين القبو ونقوم بإلقائها في مكان بعيد داخل كيس بلاستيكي كي يتم اكتشافه، كانت تريد دومًا أن يتم اكتشاف الجريمة وكأنها ترسل رسالة تهديد لأمثالهم، لم أعارضها، أما باقي الجسد أقوم أنا بتحنيطه ووضعه مع باقي الأصدقاء المحنطين في القبو، حتى لا يشعر أبي وأمي بالوحدة أبدًا.

دلفت إلى غرفتها، هل رأيت شيطانًا نائمًا من قبل؟ أيقظتها بهدوء بعد عدة ساعات، ناولتها كوبًا من العصير وأنا أبتسم لها، احتضنتني في ودٍ لم أصدقه، تجرعت بعض العصير، ربتُّ على شعرها وقلت:

- اشربيه كله، يومك كان مرهق ومحتاجة تعوضي الطاقة دي..

ابتسمت وأكملت الكوب، جلست في مكاني أتأملها وفي غضون ثوانٍ بدأت في الصراخ وهي تتلوى كثعبان الكوبرا، تتراقص في ألم وكأن حاوٍ يعزف لها بناي خشبي، ولكنها تلك المعزوفة كانت بلا شك معزوفة للموت، لم أنطق بكلمة واحدة، فقط بقيت في مكاني بلا حراك أرى الدم يسيل من فمها وعينيها حتى سكنت تمامًا.

دلف عم حافظ إلى الغرفة، أومأ برأسه دون أن ينبس ببنت شفة، حمل فلك بصعوبة وقال وهو يغادر:

- انت عملت الصح يا ولدي، فلك كانت حية ملعونة، وسمها كان شوية وهيطولك.

بعض الأشخاص يمتلكون ما يسمى بال(كيمياء) فيما بينهم، ولكن ما لم أكن أعرفه جيدًا أن بعض المواد الكيميائية قد تحدث كارثة كبيرة إذا اندمجت سويًا بشكل خاطئ، وهذا تمامًا ما حدث بيني وبين فلك، هذا الشر المتحرك.

***

يعلم تامر أن حاوي قام بتنفيذ تسع جرائم من خلال الأوراق التي قرأها، أو هكذا علم من التحقيقات، فنظر إليه متسائلًا:

- تلاتين جريمة؟ اللي أعرفه إن هما ٩ بس!

- أنا مش بجمع طوابع وعملات عشان أبقى فخور بالعدد، وزي ما قولتلك، أنا بحسب جرايمي بعدد الروايات اللي كتبتها، تسع روايات بتسع حكايات، يمكن عشان جريمة فلك بكل اللي ماتوا بسببها من مرضاها بعتبرهم جريمة واحدة اسمها جريمة فلك، وكل اللي حصل في حكايتي معاها اتكتب في رواية واحدة.

- إزاي ممكن إنسان يقدر يقتل شخص يحبه؟ ماحستش بتأنيب ضمير؟!

- أنا حبيت فلك، بس هي كتبت شهادة وفاتها من أول لحظة عرفتني فيها، مافيش تعبان يآمن لحاوي، وفلك بقت بتبُخ سمها من غير ما تفكر. كان لازم أتصرف.

***

خرج تامر وهو يحمل الكثير من المشاعر المتضاربة، ضوضاء الشارع لا تحتمل، ضجيج المارة لا يتوقف، إلا أن الصخب في رأس تامر كان أعلى بكثير، يسير في الشوارع كالأعمى، لا يرى سوى رحيم الحاوي، لا يسمع إلا صوته، حكاياته، ونبرته الهادئة وهو يقول "تامر الأميري

لازم يكون جواه حاوي! لازم يكون عارف مين التعابين اللي لازم يدفنها جوا بجورها".

قبل صعوده إلى المنزل، اتصل بداوود وأخبره عما قاله رحيم، شكره داوود وطلب منه أن يخبره عن موعد المقابلة كي يخبر أنوبيس. وصل بعدها إلى شقته، كان بابها مفتوحًا، انتفض قلبه إلا أنه هدأ في لحظة عندما أدرك ألا يوجد في منزله شيء يستحق السرقة. دلف إلى الداخل، كان بديع جالسًا في تحفز، يدخن سيجارته في هدوء، نظر له تامر في استغراب وقال:

- خير؟ إيه اللي دخلك هنا؟

ضحك بديع في سخرية وأجابه:

- حد يسأل صاحب ملك انت جاي ملكك تعمل إيه؟ ولا تكونش نسيت إنها شقتي؟

نظر له تامر في غضب وقال:

- شقتك آه بس أنا مأجرها، مش من حقك تدخلها إلا بإذن مني!

- عمومًا أنا جاي أقولك إني بكرة هفرج الشقة لمستأجر جديد، لم كراكيبك واخلع.

الدم يغلي في عروقه، يريد أن ينبش لحم بديع بفمه، يريد أن يركله خارج المنزل، إلا انه أجاب في هدوء:

- هو ده العشم يا عم بديع؟ بعد العشرة دي؟

أطلق بديع ضحكة أخرى أكثر استفزازًا وقال:

- عشم وعشرة إيه ياض؟ دي مراتك نفسها ما استحملتش! تلاقيها دلوقتي مع دكر بجد مش شبهك.

كانت تلك هي القشة التي حطمت ظهر البعير، لم يشعر تامر بنفسه إلا وهو يسحب المزهرية الزجاجية المكسورة من فوق الطاولة ليضرب رقبة بديع بكل قوته وغضبه، نظر له بديع بجسد مترنح، أمسك برقبته التي تنزف بلا توقف وهو في حال من الذهول، يحاول أن يمنع تدفق الدماء من رقبته لكن هيهات، ابتسم تامر رغمًا عنه بفم مرتعش وهو يرى هذا اللعين يموت أمامه، حاول أن ينطق إلا أن الدم خرج من فمه ليسقط جثة هامدة في لحظات. جلس تامر في أحد الأركان يبكي بصوت غير مسموع، ينظر إلى يده فيراها متشبثة بالمزهرية الملطخة بالدماء كأنه يتشبث بأي جماد في هذا العالم فقط ليتأكد أن ما فعله قد حدث بالفعل وليس من صنع خياله.

الذعر يسيطر عليه، يفكر إلا أن عقله فعّل وضع الطيران في لحظة، الرعب يتملك من جسده وعقله، شرع في ضرب نفسه مرات عديدة ليفيق، بدأ في استرجاع كل أفلام الجريمة التي شاهدها، إلا أنه لم يستوعب أنه الآن بطل أحد تلك الأفلام اللعينة، لا يتوقف صوت رحيم عن التردد في رأسه وهو يخبره أنه يجب أن يصبح حاويًا يأخذ حقه بيده.

حمل بديع بما تبقى له من قوة وقام بوضعه في حوض الاستحمام، بدأ يمسح الدماء المتناثرة كالمخمور، ما زال لا يفهم تحديدًا ما يحدث. أنهى مهمته، ألقى بملابسه في الغسالة وجلس في مكانه أرضًا مرة أخرى وهو عاري الجسد يحاول أن يفهم ما يجب عليه فعله. وبعد عدة ساعات من اللاشيء امتدت يده إلى هاتفه متصلًا برئيس التحرير.

- أستاذ صفوت، ممكن تستعجلي مقابلة رحيم لاشين الأسبوع ده مع السجن بعد إذنك؟

- خير؟ حصل حاجة؟ مال صوتك؟

- لا شوية برد، عايزين نلحق نخلص كل حاجة قبل حكم الإعدام.

ألقى تامر هاتفه بعيدًا، أشعل سيجارة بيد ترتعش، فتح شباك منزله على مصراعيه لأول مرة منذ سنوات طويلة، عاريًا لا يبالي لأحد، ضاحكًا بشكل هستيري والدموع تتساقط من عينيه، أسفل المنزل استقر محل جديد للملابس الشبابية أتت الموسيقى منه عالية تموج في أركان الشارع لتلتقط أذنيه كلمات الأغنية التي شرع في الدندنة معها في سعادة لم يشعر بها طوال حياته.

"ده مش انهزام

ده شعور بالسلام

ده مش اتزان

ده حريف في الكتمان".

***

وبالفعل كانت المقابلة الجديدة في اليوم التالي. متماسكًا بما يمتلك من طاقة دلف تامر إلى زنزانة رحيم كالمعتاد، كان الأخير مشغولًا ببعض الأوراق كعادته إلا أنه تركها فور أن رأى صديق وحدته، مد يده ليصافح تامر، فشعر أن يده تهتز وترتعش في خوف، نظر إليه متسائلًا، لم يقل شيئًا، ظل في ثبات حتى انفجر تامر باكيًا وقال:

- أنا قتلت يا رحيم! قتلت!

وضع رحيم يده في عنف على فم تامر ليسكت، أشار له بإصبعه أن يصمت، نظر حوله ليتأكد أن الحارس بعيد عنهم وقال:

- احكي لي كل اللي حصل من غير صوت عالي، بدل ما نيجي تشرفني في الزنزانة اللي جنبي!

- بديع، صاحب الشقة، بقى له شهور بيبهدلني في الطالعة والنازلة، والله حاولت أمسك نفسي على قد ما قدرت، والله المرة دي ماقدرتش!

- جتته فين؟

- في البانيو، ماعرفتش أعمل إيه غير كده.

الصمت يخيم على المكان باستثناء صوت أنفاسه التي كادت تخلع من بين ضلوعه الواهنة، جلس مرتاعًا في خوف لم يشعر به من قبل طوال سنوات حياته، يتجمد الدم في عروقه كلما تذكر ما حدث، تتشابك أفكاره تكيوط العنكبوت البرازيلي الجوال فتغرس سمها في عقله فيزداد تشوشًا وخوفًا، يشعر أنه في كابوس لن يستيقظ منه مهما حاول، يجز على أسنانه حتى كادت تخلع من مكانها، تنتفض أوصاله بقوة ٩٠٠ ريختر، يتعرق كجبل من الجليد يذوب ببطء ليلقى مثواه الأخير بين أحضان الغرق. امسك رحيم ذراعه ليوقظه من غياهب أهواله، بائسًا مرعوبًا، خرجت الكلمات من فمه بصوت رخو يكاد لا يُسمع:

- أعمل إيه في المصيبة دي؟!

- هنلاقي حل، ماتقلقش..

يحاول رحيم تهدئته لكن الأمر يبدو أصعب مما يظن.

- انت فاهم أنا عملت إيه؟ أنا خلاص حياتي ضاعت!

- لو سمعت كلامي هطلعك من كل ده بكل سهولة، مطلوب منك حاجتين؛ الأولانية إنك تتعامل بشكل طبيعي جدًا، تكمل المقالات، تمارس روتينك بشكل عادي زي كل يوم. والتانية، هقولك على شوية حاجات تشتريها تخلي ريحته ماتطلعش، معاك رقم داوود؟

انتفض تامر لسماعه اسم داوود وقال:

- انت هتبلغ عني ولا إيه!

- أبلغ عنك إيه يا عبيط، اسمع كلامي بس وأنا مخرجك منها، ودلوقتي خلينا نكمل المقال الجديد بشكل طبيعي جدًا.

وعده رحيم بمساعدته، هدأ قليلًا بعدما شعر أنه واثق فيما يقول، مسح تامر دموعه، أخرج كراسته بيدٍ ترتعش، وبدأ في تدوين القصة التالية وهو يحاول التماسك بكل ما أوتي من قوة.

***

الجريمة السابعة

القاهرة – ٢٠١٣

"لسه ناسي نفسي وما نسيتكيش

تاخدي اللي باقي من عمري لو فاضل فيه يوم

لو فاضلي ساعة همشيها وأروح

بمثل في مشهد الضيقة في سطور

أنا سنة في الضلمة ودقيقة في النور".

لعامٍ كامل لم نتوقف الصحف عن نشر مقالات وتحليلات عن السفاح المجهول، الصحافة تكتب والشرطة تستشيط غضباً، كنت أراقب كل هذا في صمت ونفر، نصحني حافظ بعدم الإقدام على أي جريمة جديدة دون داعٍ، أخبرني أن الحاوي الذكي يجب عليه أن يعلم متى

يستريح من عزفه على الناي.

وبدون إنذار مسبق، مرض عم حافظ وأصبح طريح الفراش، كانت هي المرة الأولى التي أرى ضعفه، المرة الأولى التي شعرت بالقلق والخوف تجاه شخص ما، كنت أجد معه العائلة التي حرمت منها طوال حياتي. وفي يومه الأخير جلست إلى جانبه، حكى عن ابنته، عن شبابه، حكى عن تاريخ افتقده، وحياة عاشها حتى الثمالة. وفي كلماته الأخيرة طلب مني أن أبحث عن أسرته، أوصاني بهم، إلا أن ابنته سينين أهم من وصاني عليها.

ناولني جواباً بخط يده وطلب مني أن أعطيها إياه، كتب لي عنوان بيته في سوهاج، ورحل ليتركني وحدي في عالم أكرهه بجدارة.

- دوّر عليها يا ولدي، أنا ظلمتها بغيابي وغبائي، لاقيها، عوضها، يمكن في يوم تسامح ويسامحني مالك يوم الدين!

ترك فراقه فراغاً مؤلماً في قلبي، دفنته في حديقة المنزل حتى يكون دوماً معي، ولم أتردد لحظة في تنفيذ وصيته الأخيرة، سافرت إلى الى سوهاج، بحثت عنها طويلاً، أسابيع تركت فيها كتاباتي وكل ارتباطاتي من حفلات ومناقشات، أبحث كالرحالة عنها في الصعيد، أدور كالنحلة بين مراكزها، أخميم، طهطا، جرجا، وغيرهم من مراكز، الأمر كان أصعب مما تخيلت. ولكن بعد محاولات كثيرة، علمت من بعض الجيران أن زوجته

ماتت في حادث انهيار بيتهم منذ عدة سنوات، وأن سينين تعيش في شقة صغيرة في أطراف مركز البلينا.

كنت متوترًا، وكأنني في طريقي لأخطب فتاة أحلامي. طرقت الباب في خجل، فتحت الباب شابة عشرينية رائعة الجمال، سمراء، عينيها عسلية، ترتدي جلبابًا ملونًا، تنظر إليّ في تعجب، ابتسمت وأنا أبلع ريقي قائلًا:

- حضرتك سنين؟

قالت مصححة:

- سينين، مش سنين، مين انت؟

- أنا رحيم لاشين، أنا جـ..

قاطعتني بعيون اتسعت فجأة وسعادة مبالغ فيها:

- الأستاذ رحيم لاشين الكاتب؟ أنا وربنا ما مصدقة روحي!

هرعت إلى داخل لتعود في لحظات وهي تلهث تحمل بين يديها إحدى رواياتي وقلمًا، وقالت في سعادة:

- بالله عليك يا أستاذنا توقع لي، ونتصور صورة أنزلها عندي على الفيس!

عفوية، بريئة، لم تلوثها الأيام ولا الحياة، تشبه والدها في ملامحه ولا تشبهه في روحه. ابتسمت لها وأخذت منها الرواية لأوقعها، وبعدما انتهينا أخبرتها بالشيء الذي غير

ملامحها السعيدة تمامًا في لحظات:

- عم حافظ، أقصد عم مطاوع، هو اللي باعتني ليكِ.

- مطاوع مين؟ مطاوع أبويا!

قالتها لتسقط مغشية عليها في الحال، كان رد فعلها أعجب مما توقعت، حملتها إلى الداخل وجلست بجانبها حتى أفاقت:

- سامحني، أنا مش عيلة مايصة من اللي بيغمى عليهم ويدوخوا، أنا واحدة أبوها سابها وهي بنت السبع سنين، يعني يجي اتنين وعشرين سنة ماعرفش عنه حاجة! إيه اللي فكره بيا!

- أبوكِ الله يرحمه يا سينين، وصاني قبل موته إني ألاقيكِ وأطلب منك تسامحيه.

- ربنا هو اللي بيسامح يا أستاذ رحيم، بس مجيتك فوق راسي.

ناولتها الرسالة التي كتبها عم حافظ، شرعت أحدثها عن والدها، أحكي لها كل ما يمكنني قوله عنه، أستحضر كل خير فعله معي وأصيغه بما يتناسب معها. وبينما أنا مستغرق في القص، دلف إلى داخل المنزل شاب أسمر مفتول العضلات يبدو عليه الانفعال الشديد، أمسكني من تلابيبي وقال بصوت جهوري:

- يومك أسود! داخل على حريمنا البيت!

- حريمك مين؟ مين ده يا سينين؟

- ده سليم جاري. سيبه يا سليم! ده من طرف أبويا! اختشي على دمك!

لم تبدُ على سليم أي نية لتركي، بل زادت قبضته، يتوعد ويصيح، يخبرني أنني لن أخرج من المنزل على قيد الحياة، يخبرني أن رفضها الزواج منه لا يعني أنه سيسمح لها أن تفعل ما تريد بلا حساب. نظرت لسينين، استأذنتها أن تدخل إلى غرفتها حتى يتسنى لي الحديث معه، استجابت في هدوء، وأغلقت باب غرفتها في ذعر، نظرت إلى عينيه وقلت بصوت خفيض:

- عارف يا سليم، أنا قابلت من عينتك دي كتير، كلهم دلوقتي مايجوزش عليهم إلا الرحمة.

لم أمهله الوقت ليفكر فيما أخبرته، تحسست جيبي الخلفي، صديقي الياباني ينتظرني، سحبت سكيني الصغير وغرسته بالكامل داخل جمجمته الغاضبة، حاول أن ينطق، إلا أن الفص الجبهي لمخه كان قد أُتلف بالفعل. أمسكت به قبل وقوعه حتى لا تسمع سينين صوت ارتطام جسده بالأرض، سحبته إلى الحمام، عدلت من وضع ملابسي ثم ناديت عليها، فأتت والخجل يتملك من ملامحها، ابتسمت لها وقلت:

- أنا عارف إن اللي هقوله ده غريب، بس من فضلك لمي هدومك وأي حاجة ليكِ وتعالي معايا.

- آجي معاك فين بس! هو ده كلام عاقلين! هو أنا أعرفك من أساسه يا جدع انت! لامؤاخذة يعني يا أستاذ رحيم.

تنهدت في نفاد صبر وقلت:

- بصي يا سينين، اللي اسمه سليم ده قال إنه هيجيب رجالته ويدبحوكِ، ماتنسيش إنه صعيدي ودمه حامي، وبعدين انتِ رفضتيه وطبعًا هيتلكك عشان يعمل فيكِ أي مصيبة، تعالي معايا يا بنت الناس لو خايفة على روحك.

- يا أستاذ رحيم، هو ده كلام عاقلين؟ أمشي وراك وأهمل بيتي؟

- تسيبي بيتك ولا يدبحك في بيتك؟

- يا ستار يا رب! إديني خمس دقايق يا أستاذ رحيم بالله عليك ألم حاجتي..

لم أحتج لوقتَ طويل كي أقنعها. في الطريق من سوهاج للقاهرة حكيت لها كثيرًا عن أبيها، حكيت لها كيف غيّر هذا الرجل حياتي، حكيت لها عن حبه لها، وأفهمتها أن وصيته كانت أن أحميها طوال حياتي. كانت شديدة الطيبة، لم أرها أبدًا ساذجة، هي فقط لم تتلوث بقذارة العالم، فلم ترَ منه سوى جماله وبساطته.

رحلنا إلى القاهرة، أسكنتها منزل فضل لاشين، حياة جديدة لم تحلم بها حتى في أعظم أحلامها، وكأن المنزل

بني في الأساس ليحتضن عائلة مطاوع السوهاجي.

- انت أطيب واحد في الدنيا يا رحيم، ربنا يخليك ليا.

كم كنت أتمنى لو كنت طيبًا بالفعل، لكنني عملت جاهدًا على إسعادها والاعتناء بها، عشنا سويا لعدة سنوات كأن الله رزقني بأخت بعد سنوات الوحدة، أهتم بشؤونها، أنفذ مطالبها، وفي المقابل تؤنس هي وحدتي في هذا العالم. كانت نعم الرفيق، تقرأ ما أكتب في انبهار، تستمتع لي، تهتم بكل تفاصيل حياتي، تأتي معي جميع رحلاتي الخارجية، أصبح الجميع يعرفها، وإن غابت في يوم عن حفل أو مناقشة يسألني الجميع "أين سينين؟"، قدمتها للعالم على أنها مديرة أعمالي، أصبحت الشابة الصعيدية ذات الجلباب الملون سيدة القصر، تلبس وتتحدث وتعيش كباقي سكان الزمالك.

***

كان كل شيء يسير بشكل طبيعي رتيب، حتى أتى هذا اليوم الذي لن أنساه أبدًا، كان نهارًا صيفيًا حارًا أكثر من المعتاد، كنت مستلقيًا في الحديقة الخلفية لمنزلي، وسينين في الخارج تتنزه مع بعض الأصدقاء، مختبئًا من العالم بأسره، كنت قد انتهيت من إطعام ثعابيني، على الأقل هم يشعرون بالسعادة في هذا التوقيت الحار من العام. أصبحت حياتي فارغة تمامًا بعد وفاة عم حافظ، كان خير ونيس وخير رفيق في هذا العالم البغيض، إلا أن وجود سينين كان يجلب لقلبي بعض الونس، أشاركها حياتي بكل سعادة ورضا، الأيام تمر كالأعوام، والأعوام لا تمر إلا وهي تنتزع الحياة مني رويدًا رويدًا.

أغمضت عيني لأحميها قليلًا من قوة الشمس، شعرت بأقدام شخص تقترب مني، قمت من مكاني متأهبًا، إلا أن الشخص الذي رأيته كان آخر شخص توقعت رؤيته.

- ليان؟!

سنوات طويلة مرت وأنا لا أعلم عنها شيئًا، سنوات مرت حتى فقدت الأمل في رؤيتها مرة أخرى، كانت تعيش حياتها وأعيش أنا على ذكرياتها، لم تتغير كثيرًا، ازدادت جمالًا، وكأنه القمر في اكتماله، الكون في بكاره. اقتربت منها ببطء أتأمل ملامحها، أتفحصها، أجاهد الغدد الدمعية كي لا تفضحني. في صمت وقفنا، كطفلين لم يتعلما الكلام بعد، وكأن العالم توقف للحظات بضغطة pause، فقط صوت أنغام في الخلفية تقول:

"ياه.. ياما القلب كتير اتمنى..

يجري عليك وأنا أقوله استنى..

بكره مع الأيام تنهى عُمر معاه".

حتى أخذت هي الخطوة الأولى وألقت بنفسها بين ذراعي. كم اشتقت لرائحتها! كم من الزمن مر وأنا أنتظر تلك اللحظة الكاملة! اللحظة التي لا يشوبها أي شيء، لحظة عودتها لمسكنها الحقيقي، حضني.

- كنت عارف إني هشوفك تاني..

- أنا آسفة، وحشتني أوي، لسه قلبك طيب وبيسامح يا

رحيم؟

أردت أن أسألها عن قلبي المتسامح الذي ما عدت أعرفه إن كانت تتذكر شيئًا عنه، عن قلب رحيم الخالي تمامًا من الرحمة، عن أبي وأمي الحبيبين الجالسان سويًا في قبو المنزل. أردت أن أخبرها عن عوني وحسام وناجي وتلك الطفولة المعذبة التي أمضيتها في كوابيس لا تنتهي وكفين لا تتركهما الدماء مهما كانا نظيفين، عن فلك التي أعطيتها سري وعالمي، والعشرات الذين قتلتهم لأرضيها، وعن الأستاذ عبد السلام، أردت أن أخبرها عن سليم، عن كل ضحايا رحيم الحاوي. أردت أن تبقى في حضني إلى الأبد، أحكي لها كل شيء. كنت أعلم في قرارة نفسي أن ليان الوحيدة التي باستطاعتها سماع صوت قلبي وعقلي، الوحيدة التي تفهم سكوتي وتستوعب جنوني وترى ما لا يراه الناس في روحي.

"ليه عيونك قناصة وما تراعيش الجريح!

كان واقف بينا الكلام ومش واقف النزيف

وأستنى رد فعل شعري يشيب ومافيش

وتترمي في الشبك أصل عيونك صيادين".

- انتِ كمان وحشتيني أوي، هُنت عليكِ كل السنين دي؟

- كنت معايا طول السنين اللي فاتت، عمرك ما كنت

بعيد عني، كل لحظة كنت فيها بعيد عنك كنت بلاقيك جنبي، بتقويني وبتخليني أحسن، وبعدين انت اللي عايش في العصور الوسطى وماعندكش سوشيال ميديا غير لشغلك وبس!

ضحكت من قلبي وأنا أمسح دموعي الخائنة، طلبت منها أن تنتظرني للحظات، دخلت إلى المنزل أجري كالأطفال وعدت إليها مرة أخرى بصندوق خشبي كبير، ناولتها الصندوق وأنا أقول:

- بمناسبة إني راجل قديم، أنا كنت بكتبلك جوابات، الصندوق ده هتلاقي فيه كل اللي حصل السنين اللي فاتت، كنت عارف إني هقابلك تاني وكل اللي كتبتهولك هتقريه.

احتضنتني مرة أخرى، ولكن بقوة أكبر، لم يحضنني شخص من قبل. مع ليان أشعر بإنسانيتي، مع ليان أشعر أنني أولد من جديد، معها فقط يموت حاوي ويدفن في أسحق بقاع الأرض، ويزدهر رحيم كحقل عباد الشمس في فصل الربيع. نظرت إليّ وقالت:

- مش عايزة جوابات، عايزة أشوفك وأسمعك انت!

- مش هتزهقي؟

- أنا عمري ما هزهق منك ولا هبعد تاني، استناني بس لحد بكرة أكون لقيت فندق كويس وبعدها ننزل وأحكيلك كل حاجة.

لم أكن لأتركها مرة أخرى، لم أكن لأجعلها تفلت من بين يدي مجددًا بعد كل هذا الغياب، كطفل وجد أمه بعد ساعات من ضياعه، أمسكت بيدها وقلت متسائلًا في دهشة:

- فندق ليه؟ فين البيت القديم؟

- بابا باع كل حاجة في مصر قبل ما نسافر، ماكانش عنده أمل إنه يرجع تاني، وطلع عنده حق، مات برا وآديني راجعة لوحدي.

- مافيش فنادق هتقعدي فيها، أنا عايش في الفيلا العملاقة دي لوحدي، اختاري أي أوضة فيهم!

- ماينفعش طبعًا، الناس هتقول إيه؟

- طز في الناس!

"نفسي أحكي لك على اللي دايز جوايا

وانت مش معايا

بس مش ده اللي اختارته"

أمضينا ساعات نحكي ونضحك، أعددت لها الطعام. يقال أن لكل إنسان لغة حب خاصة به، والطبخ كان لغة أتقنتها كإتقاني استخدام السكاكين. كانت تتذوق في انبهار بمهارتي في الطبخ، كانت أول شخص يشاركني مطبخي، والإنسان الوحيد الذي تمنيت أن أشاركه حياتي بأكملها

منذ كنت طفلًا صغيرًا.

جلسنا بعدها في الحديقة متقاربين، أسمع منها ما صنعته السنين بها وبي، نظرت إلى عينيها، همست بتقبيلها دون تفكير، إلا أن سينين قطعت تلك اللحظة، كانت قد عادت للتو من الخارج، تخنحت فور رؤية ليان وقالت في خجل:

- آسفة، ماعرفش إن عندك ضيوف!

بدا علينا جميعًا التوتر، إلا أنني ابتسمت، قمت من مكاني، أمسكت سينين من يدها وأتيت بها إلى ليان والتي كانت تنظر إليها في عدم فهم.

- سينين يا ليان، تقدري تقولي أختي الصغيرة!

- أهلًا سينين، فرصة سعيدة!

- ودي يا ستي ليان، اللي حكيتلك عنها.

هزت سينين رأسها في أدب وصعدت إلى غرفتها مسرعة بعدما صافحتها، أعرف تلك السرعة تمام العلم، إنها سرعة الغيرة! أعلم أن سينين تحبني، تفضحها عينيها كلما نظرت في وجهي، إلا أني لم أرها سوى ابنة عم حافظ الذي يجب عليّ أن أرعاها وأحافظ عليها التزامًا بوعدي له.

وفي غضون ساعات، تحول منزلي الصامت إلى منزل يكتظ بالسعادة، وكأن الفتاتين دخلتا في مسابقة غير موجودة لإرضائي، ليان تعوضني عن سنوات عشتها في غيابها، وسينين تغمرني بطيبتها واهتمامها بأدق تفاصيل

حياتي.

وكأن الحياة دبت في أوصال المنزل للمرة الأولى، أصبحنا لا نفترق، ليان تحكي عن مغامرتها في إنجلترا والغربة التي شكلت وجدانها، تعد لنا وصفاتها العالمية، أصبحت طباخة ماهرة، تنافسني، إلا أنني أحببت تلك المنافسة، لم أكتشف الجانب المرح من شخصيتي إلا معها، تسمع وأسمع، أضحك معها وكأنني لم أضحك في يومٍ من الأيام. في وجودها كان رحيم هو المهيمن عليّ، معها كان حاوي غير موجود وغير مطلوب، إلا أنني كنت أشعر أنها يجب أن تعرف الحقيقة، ولذلك كنت أطلب منها مرارًا وتكرارًا أن تقرأ الجوابات، لكنها كانت ترفض دائمًا وتقول أنها تكتفي بوجودها معي.

أسابيع مرت ونحن نحيا في سعادة، حتى لمحت في صباح أحد الأيام سينين تجلس وحدها في الحديقة تبكي في صمت، اقتربت منها متسائلًا، فقالت دون تردد:

- رحيم.. أنا بحبك!

- وأنا أكيد برضو بحبك يا سينين، ليه بتعيطي؟

حاولت أن أتظاهر بالغباء لكن الأمر لم يفلح، كان عم حافظ يخبرني دومًا "اللي يحب عيونه بتفضحه ولو كان أعمى"، كنت كلما نظرت إلى وجهها أرى شوقًا يتحرر من عينيها قادم من عالم آخر، حب يتمناه أي إنسان، ولكن يتمناه فقط إن كان من الشخص الصحيح.

- عشان الحب اللي جوايا ليك مش شبه إحساسك، الكام سنة اللي فاتوا هما أحلى سنين حياتي عشان عيشاهم جنبك وليك، كل يوم بقول يمكن دي الفرصة اللي هتيجي وتحبني فيها، بس مع رجوع ليان، حب عمرك، حتى الفرصة اللي حيلتي ماتت..

- أنا عشت سنين كتير مستني ليان ترجع، وفي نفس الوقت لازم تعرفي إنك أغلى حد في حياتي!

- هي أخدت الغلاوة يوم ما أخدت قلبك يا رحيم.

ليان كانت موطني في الوقت الذي لم أكن أمتلك فيه وطنًا، كانت أول من استوطن قلبًا فارغًا كقلبي، استقرت في مشاعري فتغلغلت في كل كياني دون مجهود منذ طفولتي.

انتهى الصيف سريعًا، ليبدأ الشتاء مصحوبًا بعام جديد. استيقظت ذات صباح وأنا احمل الشجاعة لأول مرة في حياتي لأخبرها بكل مشاعري، وقبل أن أقول أي شيء أخبرتني ليان بنيتها في السفر مرة أخرى إلى إنجلترا.

- هقعد هنا أعمل إيه؟ وبعدين أنا تقلت عليك!

- ليان، تتجوزيني؟

- رحيم، انت بتقول إيه؟

- أنا بحبك من وإحنا عيال، عمري ما بطلت أحبك!

وكأن القدر أراد أن يهبني السعادة أخيرًا، وافقت ليان،

بدأنا بتحضير كل شيء، اصبحت سينين لا تغادر غرفتها إلا نادرًا، تنعزل مع رواياتي فقط لتشعر أن جزءًا مني ما زال معها، لم أكن سعيدًا بألمها، إلا أنني لم أكن أرى وقتها سوى حلمي الذي يتحقق أخيرًا.

جلسنا في يوم لتحضير قائمة المدعوين، ضحكنا سويًا فور اكتشافنا أننا لا نملك من ندعوه، باستثناء بعض الجيران والمعارف من الوسط الأدبي. وقبل حفل الزفاف بيوم، وقفت في بهو المنزل أنظر إلى نفسي في المرآة وأنا أعدل من وضع ربطة عنقي لأتأكد أن ملابسي جاهزة تمامًا ليوم غد، اليوم الذي تمنيته طوال حياتي مع الإنسانة الوحيدة التي أحببتها بصدق، تمنيت وقتها لو كانت أمي معي. وبدون تفكير توجهت إلى القبو كي تراني بالبدلة.

بعض اللحظات ننسى فيها كل شيء، هبطت مسرعًا، نسيت أن القاتل الذكي لا يترك ذيولًا، ولا يترك أبوابًا مفتوحة خلفه كما علمني عم حافظ، هل كان حبها دواءً أنساني كل شيء؟

وقفت أمام أمي المجمدة، أرى انعكاسي في الزجاج الذي يحاوط جسدها النحيل، وقفت سارحًا حتى انتبهت لأصوات أقدام خلفي. وقفت ليان خلفي مرتاعة تتأمل عشرات الجثث البشرية المحنطة من حولي وحولها، بدأت في الصراخ، ركضت نحوها، ووضعت يدي فوق فمها وأنا أحاول أن أهدئها.

- هفهمك كل حاجة! اهدي!

قالت بصوت مذعور وجسد ينتفض هلعًا:

- تفهمني إيه؟ إيه الأوضة دي؟ وإيه الجثث دي يا رحيم؟

جلسنا، وبدأت أحكي لها كل شيء، بداية بناجي وحتى جريمتي الأخيرة، كانت تجلس بفستانها الأبيض تسمعني في ذهول ورعب. بعدما انتهيت من كلامي قامت من مكانها وقالت في عصبية ممزوجة بخوف:

- انت طلعت قاتل يا رحيم؟ قاتل؟

- طلبت منك أكتر من مرة تقري جواباتي، كنت عايزك تعرفني بشكل أحسن من كده.

- انت مجنون؟ وكنت عايزني أتجوزك؟ أنا لولا اللي حصل في حياتي والوحدة اللي أنا عايشة فيها عمري ما كنت هقبل بيك!

أصابني دوار مفاجئ وغصة في صدري، بحثت عن بخاختي كالمجنون، أرى أمامي حسام وهو يقول بابتسامته المستفزة "انت فاكر إن ليان ممكن تحبك يا رحيم؟". استدرت لها بعدما وجدت دوائي والشر يتطاير من عيني، أمسكتها من ذراعها بقسوة وقلت في غضب، أو ربما حاوي هو من أمسك بها في تلك اللحظة:

- عمرك ما كنتِ هتقبلي بيا؟ أنا رحيم لاشين! حاوي

اللي راعب قلوب الناس! ترفضيه بعد كل اللي عمله عشانك؟

وكأن حاوي قد استيقظ من ثبات عميق، وحش كان ينتظر لحظة الإقلاع، صرخت في وجهها لأرى رعبًا لم أره في عينيها طوال حياتي، شعرت بذراعها يتهشم بين أصابعي إلا أنني لم أهتم، تلك كانت المرة الأولى التي لا أهتم فيها بشيء يخص ليان.

- سيبني يا رحيم، سيبني وأنا والله مش هقول لحد أي حاجة، هرجع لندن كأننا ماتقابلناش تاني، همشي كأنك ماعرفتنيش في يوم من الأيام!

تغير صوتي في تلك اللحظة وقلت بصوتٍ أجش:

- فات وقت إنك تمشي يا ليان!

حاولت أن تهرب من قبضتي بأي شكل، مدت يدها مستنجدة بأي أمل حتى طالت يدها الأخرى شيئًا ما، أمسكت بقطعة حديدية كانت ملقاة بجانبها، ضربتني فوق رأسي، فتركتها متألمًا، بدأت تركض باتجاه سلم القبو، أعلى السلم كانت سينين تقف في ذهول تشاهد كل ما يحدث، تنهدت ليان في ارتياح فور أن رأت سينين وقالت مستنجدة:

- سينين، اطلبي البوليس بسرعة!

إلا أن سينين لم تنطق ولم تتحرك من مكانها. قمت من

مكاني والغضب بداخلي يتزايد، وصلت لليان وأمسكت بها مرة أخرى، لم أعرف ما يجب أن أفعله أو أقوله، إلا أن سينين نظرت إليّ وقالت:

- أنا هقفل عليكم لحد ما تخلص اللي المفروض تعمله يا رحيم!

الخوف والحب وجهان لعملة واحدة، كلاهما يمتلكان القدرة على تغيير كل ما بداخلنا، وحدهما قادرين على إعادة تشكيل مشاعرنا من جديد كقطعة لينة من الصلصال.

خليط من السعادة والوجع يتملكان مني، تلك الغريبة تقبلتني، أحبتني بكل عيوبي، أحبتني بأخطائي ولعنتي. أما الأخرى، الفتاة التي أحببتها منذ نعومة أظافري لم ترَ سوى الجانب القبيح مني، فرفضتني رفضًا تامًا دون إحساس.

قمت بربطها في أحد المقاعد، جلست أمامها، في محاولة للمرة الأخيرة أن أغير وجهة نظرها عني، في محاولة أخيرة لأنقذها من حاوي.

- أنا قتلت مرتين عشانك! ماكنتش بستحمل فكرة وجود شخص بيضايقك في العالم! في الآخر عايزة تمشي وتسيبيني؟

- أنا عمري ما طلبت منك تقتل حد عشاني! لو بتحبني سيبني وامشي يا رحيم.

- عارفة يا ليان، انتِ الإنسانة الوحيدة اللي كان نفسي أحكيلها كل حاجة، وأيًا كان السيناريو اللي تخيلته عمري ما تخيلت إنك ترفضيني أو تخافي مني! رحيم عمره ما ممكن يعمل فيكِ حاجة!

قمت بتحريرها من تلك الحبال الغليظة، هدأت من روعها، أمسكت بيدها لنخرج سويًا إلى الحديقة الخلفية، تحركت بجانبي كالثمل، أقدامها تكاد تحملها، اقتربت منها، احتضنتها ثم أبعدتها عني، وبدون سابق إنذار انهلت على رأسها بالمجرفة الحديدية مرارًا وتكرارًا حتى تهشمت رأسها تمامًا. شرعت في حفر مثواها الأخير، متذكرًا جريمتي الأولى، ألقيت بجسدها النحيل وفستان زفافها إلى تلك الحفرة، وفي الخلفية أسمع في رأسي صوت أم كلثوم وهي تقول:

"بيني وبينك، خطوتين.

شوف بقينا إزاي أنا فين..

يا حبيبي وانت فين".

وقبل أن أغطي جسدها بالتراب، نظرت إليها نظرة أخيرة والدموع تملأ عيني وأنا أقول لها:

- رحيم عمره ما كان هيأذيكِ، بس حاوي لازم يحمي رحيم حتى لو منك.

***

وكأن تامر نسي جريمته وتلك الكارثة التي تنتظره في حمام

منزله. نظر إلى رحيم بوجهٍ مصدوم وفه يقارب الأرض من فرط صدمته، وقال في ذعر:

- قتلتها؟ ليان؟ حب حياتك؟

مسح رحيم دموعه وقال متألمًا:

- فاكر لما قولتلك إن غلطتي كانت إني قررت أعيش بهوية واحدة؟ ليان لما شافت وشي الحقيقي خافت منه، رغم إني كنت مستعد أبقى وحش مع العالم كله إلا هي.

- وسينين؟

- خلينا دلوقتي في موضوعك، مافاضلش على المقابلة كتير، اسمع اللي هقوله ونفذه بالحرف الواحد.

تأكد أن العسكري بعيدًا عنهم، ثم شرع رحيم يخبره بصوتٍ خافت ما يجب عليه أن يفعله بدقة، بينما تامر يدوّن خلفه منتبهًا بكل حواسه، ليشكره بعدها ويرحل.

***

مر يومان على حادثة عم بديع، نفذ تامر الخطوات تمامًا كما قال له رحيم، أخبره رحيم عن بعض الأدوات والمشتريات التي سوف تساعد على تقليل وتأخير رائحة العفن، أخبره أنه سيتولى كل شيء بعد ذلك، ما عليه سوى أن يتعامل في روتينه اليومي بشكلٍ طبيعي، فعل تامر كل ما أمر به، وبالفعل عاد لمنزله في اليوم التالي ليجد الجثة قد اختفت من المنزل. حمد الله على زوال الخطر،

وفور أن عادت الحياة إلى طبيعتها، تنفس تامر الصعداء، لينام تلك الليلة كمن لم ينَم من قبل طوال حياته.

***

جاء موعد المقابلة الأسبوعي سريعًا، دلف تامر إلى الزنزانة بوجهٍ هادئ مبتسم، صالح رحيم في ودٍ وقال بصوتٍ خافت وهو يحتضنه:

- شكرًا..

ابتسم رحيم وأجابه:

- مش متعود على إن حد يحضني! عمومًا لسه خطوة كمان وبعدها تقدر تشكرني.

- عارف، وكل حاجة هتمشي زي ما انت طلبت.

- يبقى تعالى أحكيلك عن يومي الأخير قبل ما يتقبض عليا، اليوم اللي بعده كل حاجة اتغيرت.

***

الجريمة الثامنة

القاهرة - ٢٠٢١

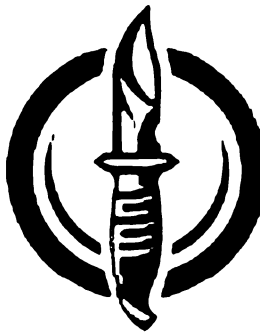

خمس سنوات مرت منذ أن فارقت ليان الحياة، كل يوم أفتح عيني على واقعٍ قاسٍ لا يطاق وتعاسة ليس لها مثيل، فراغ شاسع في قلبي وروحي، جرح لا يلتئم، أنهض من فراشي ببطء، أنظر إلى المرآة فأرى حاوي يبتسم في انتصار بينما رحيم يموت ألمًا بعد كل يوم، شاحب كالأشباح، أعيش بلا روح، باهت بلا مشاعر، أتناول طعامي بلا شهية، وكأن كل شيء قد فقد معناه، حتى رغبتي في القتل تقهقرت وأصبحت كالمنتكس لا أقوى على فعل شيء سوى النوم أو التحديق في الفراغ، وكأنها رحلت حاملة معها كل مسببات السعادة والحياة.

تزوجت من سينين، أحببتها كزوجة، لم أرها حبيبة أبدًا،

إلا أنها الوحيدة التي تقبّلت حقيقتي، بل وأحبتها بكل جوارحها أيضًا، تفهمت هويتي ولم تجادلني، أخبرتني أنها ستحبني دائمًا وتحت أي ظروف، وكأننا برمنا عقدًا بلا أوراق أو حروف، عقد مكون من بندٍ واحد، ينص على تقبلنا لبعضنا البعض بلا شروط أو جدال، عقد غير قابل للإلغاء، خمس سنوات من الرتابة والروتين، حاولت كثيرًا أن أنتحر إلا أن حاوي كان يمنعني ويوبخني، كنت أخشى إغضابه، أوافقه في كل شيء، يخبرني أن وجودنا في الحياة له سبب ما لم نكتشفه بعد، يخبرني دومًا عن ما أنجزناه وعن هؤلاء الملعونين الذين خلصنا العالم من شرورهم. أحاول أن أتحكم فقط في رغبته في القتل، حتى أتى هذا اليوم المشؤوم الذي أزاح الستار عن هويتي وفضح أمري، يوم حفل توقيع روايتي الأخيرة.

سنوات مرت وأنا أصارع نفسي، أصارع حاوي الكامن بداخلي، أخبره أني اكتفيت من الدماء، اكتفيت من الكوابيس، اكتفيت من ندمٍ لن ينتهي، إلا أنه كان يتسلل إلى رأسي، يتمدد بداخل عقلي، يسحبني إلى تابوهاتي المفضلة، شيطان يوسوس لي ولا أجد في جعبتي ترياقًا للعناته، استيقظت ذات صباح والغضب يتملك مني. كنت قد عاهدت حاوي بأنني لن أتهاون في حقه ولا حقي، عاهدته أني سأقدم على أي جريمة إن كان صاحبها يستحق الموت حقًا.

نظرت إلى ساعتي، ساعتان على موعد حفل توقيع

روايتي الجديدة. ارتديت ملابسي، تأكدت من وجود أدواتي معي، قلمي وسكيني الصغير، وضعت عطري المفضل (Sauvage)، ودّعت بعدها سينين، والتي كانت لحسن الحظ مصابة بالحمى، حمدت الله على عدم استطاعتها القدوم، لقد عاهدتها بعد مقتل ليان أني لن أعود إلى الجانب المظلم مني مرة أخرى، صدقتني، أحبتني كأعمى مستسلم لدليله في صحراء مكفهرة بلا شروط.

- كان نفسي أكون معاك زي كل سنة...

- لسه السنين جاية كتير، المهم دلوقتي إنك ترتاحي.

دلفت إلى قاعة التوقيع، العشرات كانوا في انتظاري، ألوّح لهم بابتسامة هادئة، جلست فوقف الجميع في صفٍ طويل، وكأنهم ينتظرون لحظة لقاء مع مصيرهم، أمضيت أكثر من ثلاث ساعات أوقع لهم روايتي الجديدة بلا توقف، شعرت بدوار خفيف إلا أنني لم أهتم كثيرًا، أعلم كم يحبني قرائي وأعلم انهم ينتظرون هذا اليوم منذ أشهر. ساعات وأنا أنفذ مطالبهم كإنسان آلي، هذا يريد توقيعًا وهذا يريد صورة، هذا يناقشني في نظرية تخص رواية سابقة، وهذا يطلب لقاءً صحفيًا، لم أعتد أن أقول لا، وبين اللحظة والأخرى أتحسس جيبي لأتأكد أن سكيني في مكانه، كل ما كان يؤرقني هو شبح حاوي الذي ظل يتحرك ذهابًا وإيابًا أمامي في تحدٍ كأنه يبحث بين البشر عمن يستحق الموت فيما بينهم.

وبينما أنا منهمك في التوقيع، اقترب مني رجل خمسيني، يبتسم في سخافة لم أستسِغها، ربما لأنني أكره المنافقين في المطلق، وربما أيضًا لأنه كان يشبه فضل لاشين بشكلٍ كبير، مد يده بالرواية الجديدة وقال:

- ممكن توقيعك يا أستاذ رحيم؟ أنا من أقدم معجبينك.

ابتسمت له في هدوء وأنا أمسك بنسخته بين يدي، كنت أريد أن أخبره أنه بالفعل من أقدمهم، إلا أنه أقدمهم سنًا، إلا أنني طردت الفكرة من رأسي وقلت:

- شرفتني يا أستاذ...

- وليد، التوقيع باسم وليد، بس اسمحلي أقولك من غير زعل، الرواية الأخيرة ماعجبتنيش، أسلوبها كان ضعيف وكنت تايه في أحداثها، بصراحة ماليش في الرعب.

ضغطت على أسناني وقلت بالابتسامة الأكثر اصفرارًا في العالم:

- اللي جاية هتعجبك.

- أصل الكتب مابقتش رخيصة، نركز بس في اللي جاي عشان الجماهير.

قالها الرجل بشيء من التهكم الذي لم يرُق لي، وقّعت له في هدوء، خرج الرجل من القاعة بعدما سحب الرواية من يدي دون أن يشكرني حتى، نظرت إلى يدي فور رحيله فوجدتها غارقة في الحبر، هذا الرجل لم يكن يريد توقيعي،

بل كان يأخذ بصماتي لسببٍ ما، ثم أيقنت شيئًا آخر، أخبرني هذا الحقير أنه لا يحب الرعب، وأنا لا أكتب الرعب، هذا اللعين لم يقرأ شيئًا لي كما يزعم!

استأذنت من الجماهير لأخرج لدقائق، تعللت بأنني أريد تناول قهوتي، غادرت بوابة معرض الكتاب بخطواتٍ ثابته سريعة وأنا ألتفت حولي، تحركت خلف الرجل حتى موقف السيارات، وفور أن دلف إلى سيارته فوجئ بي أتبعه للمقعد المجاور، نظر لي في حيرة وتوتر وهو يحاول استيعاب الموقف، ابتسم في قلق وقال متسائلًا:

- أستاذ رحيم، خير يا فندم؟

- حبيت أعتذر لك عن الرواية اللي ماعجبتكش، أوعدك مش هتتكرر تاني.

لم أمهله الوقت ليستوعب أو يجيب، أخرجت من جيبي سكينتي العزيزة (ديبا)، وفي ثوانٍ كانت شفرتها الحادة تُقبل رقبة الرجل قبلة الوداع الأخيرة، اخترقت السكين وريد رقبته مرورًا بالغدة الدرقية، عاجلت نزيف الدم بقطعة من القماش دسستها بأكملها في تلك الفجوة الصغيرة في رقبة الرجل غير المصدق لكل ما يحدث.

- عارف يا أستاذ وليد، أسوأ كاتب هو اللي مش بيذاكر اللي هيكتب عنه كويس.

قلت جملتي، ولكنه في الأغلب مات قبل سماعها، مسحت بعض بقع الدم المتناثرة في أرجاء السيارة،

ترجلت منها بعد ذلك لأخرج من جيبي الآخر بخاخة الربو الخاصة بي، سحبت نفسًا عميقًا منها حتى عدت للتنفس بشكل طبيعي ثم توجهت مرة أخرى لجماهيري المنتظرين بابتسامة حقيقية للمرة الأولى منذ بداية اليوم.

ومثلما تأتي الكوابيس على حين غرة، تحول كل شيء في لحظات إلى اللون الأسود، اندفع باتجاهي عشرات من رجال الشرطة، اكتشفت أني كنت مراقبًا بالفعل، وعرفت فيما بعد أن ضحيتي كان أحد رجال الشرطة، كان جزءًا من كمين أُعد خصيصًا لي، خلال تلك الفترة ازدادت الأقاويل عن رحيم لاشين، الكاتب الذي يصف جرائم القتل بالتفصيل، وعن هذا القاتل المتسلسل الذي ينفذ ما في رواياته بكل دقة، قال البعض أننا شخص واحد، والبعض الآخر قال أني قمت بتعيين هذا الشخص المجهول كي ينفذ جرائم خيالي حتى أكتبها بتلك التفاصيل الدقيقة.

كان المشهد مهيبًا، مشهد لن ينساه زوار معرض الكتاب طوال حياتهم، رحيم لاشين، كاتبهم المفضل، يغادر أبواب المعرض وهو مكبل بأصفاد رجال الشرطة، كنت أبتسم للجميع أثناء خروجي، والمضحك أن رغم كل شيء، كانت الجماهير تتدافع لالتقاط الصور معي وأنا في طريقي لسيارة الشرطة.

لأسابيع ظللت ألاعبهم في جلسات التحقيق، أتحدى ذكاءهم المحدود، في كل تحقيق جديد كنت أحكي قصة

مختلفة، كلها قصص منطقية، كلها قصص شيقة مليئة بالتفاصيل التي قد تبرئني أو تزج بي في السجن إلى الأبد، حتى تم استبدال المحقق الذي يتولى القضية بمحقق آخر، لن أنساه طوال حياتي، يدعى زكريا الهواري، كان ذكيًا ماكرًا، وكأنه يمتلك عيونًا ثاقبة ترى الاعيبي وترى الحاوي الكامن بداخلي والحيل التي يمتلكها، لم يستجب لأكاذيبي، وكأنه ثعبان مخضرم لا يهتم بموسيقى الناي وسحرها الخفي، زاهد في كل شيء إلا التعطش للإيقاع بي في شباكه.

وعندما شعرت أن النهاية قد حانت اعترفت بكل شيء، حكيت له قصتي، أخذته هو ورجاله في رحلة ميدانية لقبو منزلي، قمت بتمثيل كل جرائمي مرة أخرى، حكيت لهم عن البدايات، عن أبي، حكيت لهم عن هؤلاء البشر الذين قاموا بتشويه قلبي بكل سهولة ويسر، جلس زكريا معي نتحدث سويًا عن قصتي الغريبة، أشعل سيجارته ثم ناولني الأخرى وقال:

- تفتكر قتلك ليهم كان هو الحل يا رحيم؟ مافكرتش إن فيه حد منهم كان يستاهل فرصة تانية؟

- أنا ماكنتش إله عشان أديهم فرصة تانية يا زكريا باشا، أنا كنت مجرد حاوي بينفذ في التعابين دول العقاب اللي يستاهلوه.

- يعني رغم كل ده مش حاسس بأي تأنيب ضمير؟

- واحد حبيبي مرة قال إن الموت في أوقات كتير

بيكون راحة للي حواليهم قبل أما يكون راحة ليهم.

تمت المحاكمة، وبعد عدة جلسات وبعض الأشهر القليلة تم تحويل أوراقي لفضيلة المفتي، مفارقة مضحكة أليس كذلك؟ وكأن عمري كله اتصل بشكل ما بالقضاة، قاضٍ كان السبب في مجيئي لهذا العالم، وآخر كان السبب في وضع نقطة النهاية لقصتي البائسة، لم أهتم، لم أبكِ، كنت أعلم أن الموت هو مصير أمثالي، لم أطلب الرحمة، لم أحلم بها حتى في أعظم أحلامي، فقط قمت باستخدام علاقاتي ومعارفي حتى أحصل على تلك الزنزانة الخاصة، لم أرِد أن أشارك غريبًا أنفاسي الأخيرة، أردت أن أحصل ولو على قدر بسيط من الراحة والسكينة في أيامي الأخيرة، أكتب ما أريد وقتما أريد، أكتب دون الحاجة لتسليم ما أكتب لناشر في وقت محدد، أقضي أوقاتي مع ثعابيني المخلصين والذي ساعدني زكريا الهواري في إحضارهم لزنزانتي، كان متفهمًا متعاطفًا معي رغم كل شيء، كنت أحتاج لوجودهم، كائنات هادئة تشبهني في سكوني، وأقرأ كثيرًا حتى ينطفئ النور الأحمر القابع في رأسي فأهدأ وأرى العالم بألوان لم أعرفها من قبل.

لم أسعَ لأي شيء آخر، رفضت كل المقابلات، رفضت كل العروض من العديد والعديد من الصحف والمجلات والقنوات، إلا أنني حينما رأيتك شعرت تجاهك بهذا الشعور الغريب، أشفقت عليك قليلًا، إلا أنني رأيت شيئًا أعمق خلف تلك الابتسامة الساذجة التي تحملها معك

دائمًا، كنت أعلم أن خلف تلك الابتسامة شيء مخيف، تمامًا كالأفلام، أغلب المنازل المسكونة تبدو من الخارج عادية تمامًا، ولكن ما أن تدخل حتى تكتشف أهوالًا لم تكن على البال تمامًا، ورأيت في وجودك ونسًا كنت أحتاج إليه أكثر من أي شيء آخر.

وها نحن الآن بعد العديد من الحكايات والذكريات نكاد نصل إلى نهاية القصة يا عزيزي.

***

تأثر تامر من كلماته مثل العادة، أحب رحيم رغم كل شيء، يرى بداخله إنسان شوهته الحياة، يرى بداخله طفل نضج قبل الأوان، مزقته الدنيا لقطع صغيرة رغم محاولاته المستميتة ليجمع شتات نفسه.

- كده فاضل جريمة واحدة أظن؟ إزاي عملتها وانت في السجن؟

- الحكاية الأخيرة مش ده مكانها ولا ميعادها، دي حكاية محتاجة بحر وهواء أنا مستني تقولي هنسافر إسكندرية امتى، بلغ داوود باشا بالميعاد وأنا جاهز.

***

الجريمة التاسعة

مرت الأيام التالية كالسنوات، يفصله عن تنفيذ الحكم خطوات قليلة، وفي اليوم المحدد استيقظ رحيم في السادسة صباحًا، تناول طعامه في صمت، أخرج بعدها ثعابينه من أحواضهم ليطلق سراحهم من خلال فتحات التهوية الخاصة بالسجن، تحركت عربة الترحيلات يتبعها العديد من سيارات التأمين وخلفهم سيارة جريدة حديث الشعب متجهين جميعا إلى مدينة الإسكندرية، كانت إدارة النادي قد بلغت الأعضاء مند عدة أيام بأن النادي سيكون مغلقًا هذا اليوم لأعمال الصيانة، فور وصوله مد رحيم رأسه متنفسًا هواء الإسكندرية في سعادة.

دلف إلى النادي مكبل الأيدي، خلفه العشرات من رجال الشرطة. فور أن رأى البحر ابتسم في اغتباط، تذكر أمه، تذكر تلك الذكريات التي لم ينسَها، وحضن غيابه كان كفيلًا بتحويله لقاتل متسلسل، ابتسم كأنه لم يبتسم من قبل، شعر بتلك البهجة التي كان يشعر بها وهو يلعب مع أمه على الشاطئ في طفولته.

بدأ فريق تامر في تجهيز مكان التصوير، مقعدين جلديين تم وضعهم على مرسى اليخوت الخاص بالنادي ومن خلفهم كان البحر يلمع في دلال، العديد من الكاميرات مصوبة باتجاه المقاعد، طاولة صغيرة استقر فوقها الميكروفونات، كل عامل يقوم بعمله والكل متأهب لهذا اللقاء. تناثر رجال الأمن في كل مكان تحسبًا لأي شيء، حتى أن سامي العمري مدير السجن حضر بنفسه ليتأكد

أن كل شيء يسير على ما يرام، دخل رحيم إلى غرفة تغيير الملابس مع أحد الجنود، كانت تشبه تلك الغرفة التي قتل فيها ناجي، ضحك بصوتٍ خافت ليدخل بعدها يبدل ملابسه، شعر بإحساس غريب، كونها المرة الأولى التي يرتدي فيها ملابس غير ملابس السجن منذ ما يقرب من عام أو أكثر، خرج بعدها ليصافح تامر في ودٍ، قام العسكري بفك أصفاده قبل بداية الحوار، شرع تامر في شرح خطوات التصوير وكيف سيتم إجراء الحوار.

- مش عايزك تقلق، اعتبره يوم عادي من قعدتنا في الزنزانة.

ضحك رحيم وقال:

- الفرق بس إن عيون الدنيا كلها هتشوفني.

نظر رحيم إلى جانبه فوجد داوود يقترب منهم مبتسمًا وبجانبه يسير شاب عشريني يبدو عليه السعادة المفرطة، صافحهم داوود وقال موجهًا كلامه لرحيم:

- أحب أعرفك، أنوبيس يا رحيم، أو سعيد.

كان أنوبيس شابًا صغير السن، ملابسه بسيطة وابتسامته لا تفارقه، مد يده رحيم مصافحًا فأخذها في حبٍ وسعادة غامرة، عيناه تلمعان وهو يقول في اغتباط شديد:

- أنا مش مصدق نفسي إني واقف قدام حضرتك.

- أهلًا بيك يا سعيد! سمعت عنك كتير..

كان الأمر أشبه بلقاء بين رحيم وأحد معجبيه، نظر سعيد لداوود والذي بدوره قال لتامر:

- تعالى نسيبهم خمس دقايق يتكلموا قبل بداية اللقاء.

اقترب أحد رجال الشرطة في تحفز إلا أن داوود ذهب إليه، قدّم له نفسه وفهمه الموقف، فهز رأسه وابتعد معهم قليلًا ليتركوا لهما بعض الخصوصية قبل إلقاء القبض على سعيد، جلسا وبدأ سعيد كلامه وهو في منتهى السعادة:

- حضرتك مثلي الأعلى، أنا حتى عملت تاتو شبه التعبان اللي على إيدك بالظبط.

قالها وهو يشير لرحيم للوشم الرخيص الذي يعتلي ذراعه الأيسر، اكتفى رحيم بالابتسام كي يعطيه الفرصة حتى يكمل كلامه:

- أنا متابع قضية حضرتك من الأول، ده غير إني بعشق رواياتك من زمان، كتب حضرتك ساعدتني كتير في حياتي، بدأت أعمل عن حضرتك بحث وعرفت حكايتك كلها، وساعتها بس قررت أخلق شخصية أنوبيس، بالمناسبة أنا قتلت ٣ مرات عشانك.

كانت تخرج كلماته على استحياء: عشاني أنا؟!

قالها رحيم في عدم فهم:

- من فترة كنت متابع موضوع تحويل رواية "ما رواه الموت" لفيلم سينما، وعرفت قد إيه حضرتك كنت

متحمس للموضوع واشتغلت عليه، وبرضو عرفت إن بعد فترة المخرج استعان بكاتب تاني قريبه وحتى بطل الفيلم نسي مشروعك وكل اللي فرق معاه الفلوس. أنا بقى قتلت المخرج والمؤلف والممثل، أول جريمة كانت جريمة قتل المؤلف، قتلته يوم فرحه في أوضة نومه، وبعدها قتلت الممثل يوم العرض الخاص لفيلمه، وفي النهاية قتلت المخرج في مكتبه، أنا عملت كل ده عشان حضرتك تكون مبسوط مني.

ضحك رحيم وقال له وهو يضع يده فوق كتف سعيد:

- عايز تبقى حاوي؟ ولا عايز تفضل هاوي؟

- هو أنا ممكن أبقى حاوي زيك؟

قالها سعيد في سعادة مختلطة ببعض البلاهة:

- لو عايز تبقى حاوي لازم تعمل حاجة ماحدش سمع عنها، مش شوية جرايم وخلاص.

- زي إيه؟ أنا مستعد أعمل أي حاجة!

في هدوء شديد مد رحيم يده أسفل الطاولة ليناوله مسدسًا صغيرًا وضعه بين أصابعه وقال له بصوت خافت:

- ده مسدس بيريتا ٩٢، خزنته فيها ١٥ طلقة، اقتل أكبر عدد من الظباط في المكان وساعتها هتبقى حاوي.

نظر سعيد للمسدس القابع بين يديه وهو في حالة من السعادة الغامرة، وكأنه قد تلقى وسامًا عالي الشرف، ظل

قابعًا في مكانه، اقترب تامر وداوود من رحيم، كانت تلك اللحظة هي إشارة الهروب، خلف موقع التصوير استقر يخت صغير جلست بداخله سينين وقائد السفينة، بدأ بعض رجال الشرطة الاتجاه نحو سعيد للقبض عليه، إلا أنه بلا تمهيد صوب فوهة المسدس لوجوههم ليبدأ تبادل الرصاص بينهم في لحظات.

ومع أول طلقة انطلقت في الهواء بدأ الثلاثة يركضون باتجاه اليخت بكل طاقتهم، رحيم كان أول من وصل إلى اليخت، تبعه تامر وبعدهم داوود، تحرك اليخت في لحظات، صرخ مدير السجن في رجاله واليخت يبتعد عن مرماهم سريعًا وقال غاضبًا في عدم فهم:

- القوات تتحرك ورا اليخت ده بسرعة.

بدأ الجميع في الاتصال بالقوات البحرية الخاصة بهم، الكل منشغل، الكل قلق، الكل في حالة ذعر لهروبهم إلا أن أحدًا لم يكترث لهذا الشاب المسكين سعيد الذي سقط قتيلًا في غضون ثوانٍ وهو يحلم فقط بأن يكون مجرد حاوٍ كمثله الأعلى.

***

بعد عدة دقائق من الإبحار، توقف اليخت قبل الحدود الإقليمية لينتقلوا جميعًا إلى مركب آخر بعدما أضرموا النيران في المركب الأول، ومع حلول الظلام شرعت المركب في التحرك في هدوء الليل، صوت دقات قلوبهم

كان أعلى من التجاج الموج، لكن أملهم كان أكبر من أي شيء. اختبأ الجميع فور اقتراب مركب خفر السواحل منهم باستثناء داوود، قام بتقديم نفسه وأوراقه لهم، أخبرهم أنه في مهمة سرية، شكروه وهموا بالرحيل، لكن في تلك اللحظة وصل لهم نداء استغاثة عن بعض الهاربين ومن ضمنهم داوود. أخرج الأخير سلاحه الناري لتستقر الرصاصة الأولى في رأس الجندي الأول والأخرى في رقبة الثاني، إلا أن الجندي كان قد عاجل داوود برصاصة في صدره قبل أن يخر صريعًا.

جلست سينين إلى جانب داوود تحاول أن تسعفه لكن الوقت كان قد تأخر كثيرًا، اشتد نزيفه، نظر له رحيم بعينٍ دامعة، ابتسم له داوود، وأوصاه أن يعتني بإكليل، ليسقط قتيلًا في لحظات، شرعت سينين في البكاء، احتضنه رحيم ليلقيه بعدها في البحر، مثواه الأخير.

استقرت المركب بعد قليل في منطقة أبو قير، ليستقلوا جميعهم سيارة كانت في انتظارهم حتى وصلوا بعد ساعات قليلة إلى ميناء بورسعيد.

في عتمة الليل استقرت مركبتان صغيرتان، الأولى طلب رحيم من سينين ركوبها استعدادًا للذهاب إلى اليونان، احتضنها رحيم ووعدها أنهما سيلتقيان قريبًا، بكت بين أحضانه، بداخل المركب، كانت تنتظرها إكليل مع أحد البحارة، بعين مرعوبة ظلت تبحث عن داوود لكن بلا فائدة، احتضنتها سينين ففهمت أنها لن ترى حبيبها مرة

أخرى، ودعهما رحيم بقلب مكروب وهو يرى قاربهما يبتعد عن عينيه إلى غياهب الليل.

بعدها أخذ تامر من يده إلى المركب الأخرى المتجهة إلى ميناء أزمير بتركيا، نفذوا جميعًا كلامه لتبدأ المركبتان في الابتعاد عن الميناء في أحضان الليل القاتم في أجواء تتناسب تمامًا مع وداع أخير.

ساعات والمركب تتحرك في صمتٍ مطبق، ومع ظهور أول شعاع من فجر يوم جديد، أمسك رحيم هاتفه، لسببٍ ما أراد أن يستمع إلى تلك الأغنية في تلك اللحظة الفارقة من حياته، خرج صوت أمير عيد من الهاتف معلنًا التمرد على كل شيء قائلًا:

"أنا الألم اللي في قلبك،

أنا قلم كتب نعيك أنا..

أنا قلم على خدك،

أنا اللي هنتك كسرتك أنا..

أنا علم على أرضك،

محتل فاكرني حررتك أنا..

مهما تكبر أنا أصلك،

أنا جذور شجرتك أنا".

كانت المركب تبحر في هدوء، الأمواج تضرب أركانها

يمينًا ويسارًا، جلس رحيم عند مقدمة السفينة ينظر إلى الشروق بعين دامعة، لا يرى شيئًا من حوله، لكنه كان يشعر بالكثير من المشاعر المختلطة، اقترب منه تامر وقال في قلق:

- تفتكر هيمسكونا؟

- خلاص، إحنا بقينا بعيد..

- شكرًا يا رحيم، انت أنقذت حياتي.

ابتسم رحيم في مكرٍ وقال:

- بالعكس، أنا اللي لازم أشكرك.

- تشكرني أنا؟ ليه؟ أنا ماعملتش أي حاجة!

استدار مواجهًا تامر وقال مبتسمًا:

- لولاك يا تامر كان زماني اتعدمت، كل اللي حصل ده الفضل يرجع لك فيه.

- مش فاهم حاجة!

- أنا هفهمك.

اعتدل رحيم في جلسته وبدأ في سرد القصة لتامر...

***

بعد أن تم إلقاء القبض عليّ وصدور حكم الإعدام، بدأت في كتابة روايتي الجديدة، أو بشكلٍ أدق، روايتي

الأخيرة، رواية (النهاية)، والتي بها كنت سأدون تفاصيل مشاعري الخاصة بعد كل جريمة وحياتي في السجن، هذا الشعور المختلط بين الندم والقوة والألم، في زنزانتي كنت أكتب بشكل يومي، ولكن الرواية كانت تفتقد لشخصية جديدة تلعب دور البطولة، شخصية ضعيفة، بائسة، شخصية أشبه بقطعة صلصال جاهز كي أشكله كيفما أريد. أُصبت بإحباط حتى رأيتك للمرة الأولى، بدأت في سرد قصتي لك وكنت أرى كيف كانت تتغير ملامحك بعد كل لقاء، اشمئزاز، خوف، ففضول، فاهتمام، حتى أصبحتَ متيمًا بحكاياتي، فقررت أن أغير فكرة الرواية تمامًا والفضل يعود لك يا صديقي.

شرعت في كتابة الرواية عن غريزة القتل بداخل الإنسان، أصبحتَ أنت البحث الأهم في مشواري الأدبي، كيف يمكنني أن أحول سلوك إنسان سلبي مثلك لقاتل، كيف أستطيع أن أزرع بداخل شخصيتك الهشة حاويًا جديدًا، بالإضافة لأسلوب الإقناع الباطني الذي قمتُ باستخدامه معك، كنت أخاطب عقلك الباطن وأقوم بإغوائه دون إدراك منك، تمامًا كما فعل داوود مع سعيد.

أتذكر هذا اليوم، عندما طلبتُ منك أن تحكي لي عن حياتك؟ هل تتذكر العصير الذي قدمته لك؟ بداخله وضعت لك جرعة من ثيوبنتال الصوديوم، أو كما يطلقون عليه، مصل الحقيقة، كنت أريد أن أرى حقيقتك،

أردت أن أرى تامر بلا أقنعة، وبالفعل يا عزيزي لم تخيّب ظني، كنتَ كسائر القتلة، تنتظر لحظة الإقلاع الأنسب، وحينما تأكدت أنك مشوّه من الداخل أقنعتك أن تصبح حاويًا، أقنعتك دون أن تدري حتى، ارتكبت الجريمة التي كثيرًا ما تمنيتَ تنفيذها في خيالك المريض.

- ماتتكرش إنك كنت مستمتع وانت بتشوفه بيموت قدام عيونك! كأنك حسيت إنك موجود للمرة الأولى في حياتك يا تامر!

نظر تامر إلى رحيم بوجه لا يستوعب أي شيء مما يسمع، إلا أنه لم ينطق بحرفٍ واحد، فأكمل رحيم كلامه، أو اعترافه..

***

لقد أحببتك بصدق يا عزيزي، كنت نِعم الونيس خلال الأسابيع الماضية، كنت تقوم بدورك على أكمل وجه، تسمعني، تلهمني، تزودني بكل ما أريد من طاقة لأنهي روايتي، أو إن صح التعبير، روايتك، أردت في تلك الرواية أن أطبق ما كنت أكتب عنه على أرض الواقع، تحويل إنسان طبيعي لقاتل، في الواقع أنت ساعدتني كثيرًا، ولكن كل هذا ما كان سيحدث إلا بمساعدة الطرف الآخر من القصة، سعيد الغبي.

- انت كنت تعرف سعيد؟!

- ولا عمري شوفته، ورغم كده لولاه ماكانتش الخطة

هتتنفذ.

أما بالنسبة لسعيد، فكان مشروعي السري الآخر بيني وبين داوود، سعيد كان أحد المرضى الذين تم إيداعهم بمستشفى الأمراض العقلية منذ سنوات، كان أحد أشهر مرضى مستشفى العباسية، قام سعيد بالعشرات من الجرائم، لكنه بعد الكشف عليه تم تشخيصه باضطراب الهوية التفارقي، أيام يرى نفسه سعيدًا، هذا الشاب المسكين الذي لا يمكنه حتى إيذاء قطة ويخاف من خياله، وأيام أخرى يتخيل نفسه أنوبيس، ميزان العدل. أخبرني داوود كثيرًا عنه، عند القبض عليه في منزل أهله والذي قام بقتلهم جميعًا لم يكن معه سوى بعض رواياتي، كان يستجدي رجال الشرطة وقت القبض عليه أن يأخذ تلك الروايات معه حتى لا يكون وحده.

داوود كان يراقب هذا بحكم عمله ضابطًا بنفس المستشفى، كان من الضباط المكلفين بتأمين المرضي الخطرين، كان يدس له كل يوم جوابات وهمية مني، يخبره أنني أحبه كثيرًا، يخبره أنه القارئ المفضل لقلبي، يخبره أنني أنتظر هروبه من السجن لكي يساعدني على هروبي، قام المسكين بتنفيذ كل شيء كما خُطط له، هرب بمساعدة داوود، وضع داوود الخطة، قام باختلاق قصة وهمية عن رواية لي كان سيتم تحويلها لفيلم لكن مؤامرة ضدي قامت بتدمير المشروع، كان يريد أن يتأكد من ولائه التام، شرع يقتل أعداء كاتبه المفضل بكل حب

واجتهاد، في كل جريمة منهم كان داوود ينتظره وقت قيامه بمهماته حتى يبعده عن مسرح الجريمة، حتى تلك الجريمة التي حدثت في القصر كانت من تدبير داوود، حتى أخبره بالخطة الكبرى، قام بتحويله أمام الجميع لقاتل متسلسل صعب الإمساك به، قاتل لن يقوم بتسليم نفسه إلا بمقابلة كاتبه المفضل وبطله، كان هو الطعم الثاني في تلك اللعبة كي أتمكن من الهروب، ابتلع هو طعم محبتي له وابتلعت أنت الطعم أيضًا، بدأت أنت تساعد داوود دون أن تدري أنها لعبة أخرى من ألعابي، بدا كل شيء وكأنه بتدبير من القدر، إلا أنني وداوود أتقنا اللعبة بكل نجاح.

***

بوجه شاحب نطق تامر كلماته قائلًا:

- يعني انت وداوود صحاب؟

ضحك رحيم مجددًا وقال:

- تقدر تقول زي الأخوات، داوود صاحب عمري الوحيد، بعلاقاتي وبسيرة أبويا ساعدته يدخل كلية الشرطة، ومن ساعتها وهو مديون ليا بحياته.

- يعني كل اللي سمعته منك كان لعبة كبيرة؟

- أنا حاولت أريح ضميري يا تامر، قبل ما تقابلني طلبت من الباشا الكبير يقولك ماتصدقش كل حاجة بقولهالك، بس انت قررت تصدق كل كلمة، قررت تاخد كل كلمة

قولتهالك من غير ما تحكم عقلك.

دلفت امرأة من داخل كابينة المركب تبتسم لهم، اقتربت من رحيم الذي وضع يده فوق كتفها وقال مبتسمًا:

- نسيت أعرفك، فلك، صديقتي ومن أقرب الناس ليا، وبالمناسبة من غيرها ماكانش أي حاجة في الفيلم ده هتحصل. سعيد كان بيتعالج عندها في العيادة قبل ما يدخل مستشفى العباسية، وهي أول حد طلبت منه يقرأ روايتي ويتأثر بأفكاري، أو بأفكار حاوي. فلك هي اللي عرفته عليا من خلال كتبي، خلته يخلق حاوي خاص بيه عشان اللعبة تكمل صح.

- هو الإنسان ممكن يتأثر بشخص أوي كده؟

- لما تبقى إنسان بلا هوية، بتتشعلق في أي هوية عشان تحس بس إنك موجود.

وقف تامر متسمرًا في مكانه كالأبله، يشعر أنه أغبى إنسان على وجه الأرض، يشعر أنه بالفعل تم استغلاله كي يساعد مجرمًا على الهرب، مجرم تلاعب بعقله ومشاعره حتى أصبح صورة أخرى منه، مجرم سبح بكل مهارة إلى دهاليز لا وعيّه حتى وصل إلى قاع امتلاكه فأصبح بين يديه كالدمية.

- فلك! فلك كمان طلعت عايشة؟!

قالها في ذهول والغضب يتطاير من عينيه، يشعر أنه في كابوس لا يجد به بابًا ليخرج منه.

- القاتل الشاطر لازم مايسيبش وراه خيوط كل اللي احتاجته جثة محروقة ومشوهة وشوية شعر من فلك وبكده بقى معانا جثة الدكتورة النفسية اللي قتلها حاوي.

- بس أنا ماعملتش حاجة عشان أستاهل يتلعب عليا كل اللعبة دي يا رحيم!

- انت كنت بطل اللعبة يا تامر، الحدث الرئيسي اللي اتبنى عليه كل اللي حصل، وجودك كان طوق نجاتي، وبالمناسبة، تقدر تقرأ الفاتحة على روح رقية!

- رقية؟ قتلتها؟

- جيبتلك حقك! ماتزعلش مني، أوعدك إني هكتبلك إهداء خاص في الرواية الجديدة.

- أنا إزاي طلعت غبي بالشكل ده؟

- انت مش غبي، انت كنت بس مستني خيط تتعلق بيه في وسط حياتك اللي بتلف بيك في دايرة مالهاش نهاية، كنت عايز تبقى بطل الرواية بأي طريقة.

سكت تامر للحظات وقال متسائلًا في ريبة:

- بس حاوي مش بيكتب غير بعد ما يرتكب جريمة جديدة، ولا إيه؟

- صح كلامك...

بلا تمهيد، أخرج رحيم سكينه في هدوء ليطعن تامر في قلبه، نظر تامر لرحيم بعين دامعة، ليغلق عينه بعدها للمرة الأخيرة، وضع رحيم سكينه جانبًا وألقى تامر في البحر وهو يقول:

- أنا آسف يا تامر، ماينفعش يكون فيه غير حاوي واحد بس، على الأقل جربت إحساس إنك تكون بطل حياتك.

نظرت له فلك تنتظره أن يخبرها عن الخطوة التالية، تعلم تمام العلم أن رحيم لا ينطق إلا صوابًا، وتعلم أيضًا أنها بدونه ستتحول إلى كائن هش تذروها الرياح، ابتسم لها وهو يمسح دموعه قائلًا:

- المركب هتوصل بينا ميناء أزمير في تركيا خلال يومين، أول ما نوصل هيكون فيه عربية مستنياكِ، هتاخدك لأنطاكية، هناك هيقابلك شخص هيأمنلك سكنك وهيديكِ هويتك الجديدة وحسابك في البنك وكل حاجة.

- طيب وانت يا رحيم؟ بعد كله هتسيبني تاني؟

- مش من مصلحتي ولا مصلحتك نعرف تفاصيل أكتر من كده، المهم إنك هتكوني في أمان.

أمسكت بيده في خوف وقالت:

- يعني مش هشوفك تاني؟

احتضنها رحيم وقال في حزن:

- لو لينا نصيب أكيد هنتقابل تاني..

***

إسطنبول

بعد مرور أسبوعين

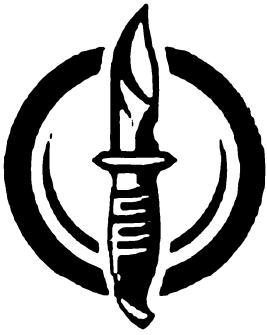

في شارع الاستقلال المزدحم دومًا بالبشر والقطط، جلس رحيم في الدور العلوي لمقهى (علي محي الدين حاجي بكير) يحتسي قهوته التركية مصحوبة بقطعة من البقلاوة الشهية في هدوء وهو يضع اللمسات الأخيرة لروايته التي يعرف تمام العلم أنها لن ترى النور أبدًا، يقرأ سطورها في رضًا لم يشعر به منذ زمن بعيد، لكن رضاه لم يكن كاملًا ليقينه أن تلك الرواية على الأغلب لن يقرؤها أحد غيره، إلا أنه أراد أن ينهيها لنفسه قبل أي شيء.

نظر رحيم من النافذة البانورامية يتأمل المارة في أسى، الجميع يبدو عليهم السعادة والاغتباط، الجميع في حالة

من الحماس لسبب ما، أما هو فيجلس وحيدًا تمامًا مثلما عاش أغلب سنوات حياته، حر ربما، ولكن تلك الحرية لا تتوافق أبدًا مع الحرية التي تمناها كثيرًا، فقط ينعم بشعور زائف أنه يرفرف في سماء ذات سقف قريب لكن في قفص أكبر رغم كل شيء ورغم كل المحاولات المستميتة بأن يعيش بلا سقف أو أصفاد، أمضى الأيام الماضية في اكتشاف تلك المدينة الساحرة، يجرب طعامها، يسير في شوارعها الحلزونية، يزور قصورها، مستعيدًا ولو قدر ضئيل من إنسانيته التائهة في بحر من الشجن.

انتهى من قهوته ليغلق دفتره الصغير، أدرج الدفتر في حقيبته الجلدية وقام من مكانه منغمسًا وسط آلاف من البشر، نظر حوله في تعجب، لا أحد يعرفه، لا أحد يكترث لوجده، لأول مرة منذ سنوات طويلة يشعر أنه غير مرئي، ابتسم في سعادة لأثر هذا الإحساس الآسر على روحه.

توجه بعدها لميناء غلاطة، أراد أن يستنشق بعض الهواء الذي يتشابه كثيرًا مع هواء كورنيش الإسكندرية، أراد أن يشعر ولو للحظات بأن أمه ما زالت حوله، وأنه أخيرًا في المكان التي تمنت زيارته قبل موتها، وأن هذا العالم الكريه يمتلك ولو قدر بسيط من الرحمة.

تنفس الصعداء وهو ينظر لهذا النورس الأبيض وهو يحلق فوق رأسه فاردًا جناحيه في وئام وغبطة، ضحك وهو يفرد ذراعيه مقلدًا الطائر، حتى أن جسده بدأ في

الرقص مندمجًا مع بعض الموسيقى التركية التي يعزفها عجوزٌ مبتسم يحمل بين يديه دفًا تركيًا قديمًا، وإلى جانبه وقف شابٌ، على الأرجح ابن هذا العجوز، يعزف على آلة الباغلما لحنًا تركيًا قريبًا إلى القلب، الآن سينعم بالحرية التي تمناها طويلًا، الآن سيندمج بين البشر بلا خوف أو قلق، يشتاق لحياته رغم كل شيء، يشتاق إلى ثعاينه، وسكان قلبه الأصليين، إلا أنه يمنع نفسه كل لحظة بأن يحاول الاتصال بسينين أو فلك، بُعده عنهم وتجنبهم هو الحل الأمثل كي يتمكّا من أن يعيشا بداية جديدة مستحقة.

وضع رحيم بعدما ابتاع رغيفًا من السميط التركي الشهير سماعات الهاتف في أذنه وأخذ يدندن مع الأغنية وهو يغوص في الزحام غير مكترث لأي شيء:

"بقيت حاوي..

بقيت غاوي في عز الجرح أنا مابكيش..

بقيت قادر أداري الدمعة جوايا ماينهاش..

بقيت راضي أنام رجليا مقلوبة كما الخفاش".

تمت بحمد الله

السنوات تمر ببطء عنيد كأن الأيام اتفقت ألا تمر حتى يفقد رحيم عقله تمامًا، لم يكن يعرف رحيم أنه سيهرب من سجنه ليعيش في سجنٍ آخر، يشتاق لكل شيء في حياته، يشتاق لفلك ولعبة المحكمة، يشتاق لسينين وضحكتها، يشتاق حتى لتامر ومقابلتهم التي كانت تملأ فراغه، ويشتاق كثيرًا للدماء. ظلت الصحف والمواقع الإخبارية تكتب عنه لعدة سنوات حتى أصبح رحيم الحاوي في طي النسيان، كحال الدنيا، انشغل الناس بقضايا جديدة ومجرمين جُدد.

استيقظ كعادته كل يوم في السابعة، ارتدى ملابسه متجهًا للمقهى الذي أصبح لا يذهب لمكان آخر غيره، والذي أصبح من رواده الدائمين، طلب قهوته المعتادة

وجلس في صمت يكتب بعض الكلمات في كراسته الصغيرة، وبينما هو منهمك في أفكاره وأوراقه اقترب شخص منه ومعه كلبه الصغير، وجلس في المقعد المجاور له، ابتسم الرجل فهز رحيم رأسه تحيةً له، اقترب الرجل قليلًا وقال بصوت ودود خفيض:

- الناس لما بتهتم بقصة شخص، بتركز بس في الجوانب اللي كل الناس بتتكلم عنها، قليل أوي اللي بيفتش عن المستخبي.

نظر له رحيم في ريبة، لم يقل شيئًا، فأكمل الرجل كلامه قائلًا:

- يعني الناس كلها اتكلمت عن حكايتك، وعن الجثث اللي لاقوها في البدورم عندك. ازاي ماحدش أتكلم عن السندرة؟ إزاي ماحدش اتكلم عن اللي عملته في نديم، توأمك!

انتفض رحيم مما سمع، همّ بالوقوف إلا أن الرجل أمسك بيده وقال:

- رايح فين يا رحيم؟ أنا متابع حكايتك من الأول، وبالمناسبة رواياتك مختلفة،خسارة إنها ما اتحولتش لأفلام لحد دلوقتي.

- أكيد حضرتك تقصد شخص تاني!

ابتسم الرجل ناقلًا مكانه لطاولة رحيم وهو يقول ضاحكًا:

- في حد يتلخبط في الكاتب العبقري رحيم لاشين! أنا عارفك كويس..

- يا ريت ترجع مكانك، أنا مش حابب أتكلم.

نظر له الرجل في جدية وقال:

- أنا ممكن أخليك ترجع حر من تاني. عندي عرض هيخليك ترجع حاوي اللي كان قالب البلد.

سكت رحيم لبرهة ثم قال في تحدٍ:

- ومين قالك إني مش حر؟ تطلع مين انت أصلًا؟!

- اللي انت عايش فيه مش حرية بجد يا رحيم.

- لو مافهمتنيش إيه الموضوع حالًا أوعدك إني هدفنك في مكانك.

ضحك الرجل وهو يُربت على كلبه وقال في هدوء:

- مش طريقتك ولا منهجك، قولتلك إني أعرفك كويس يا رحيم.

- رحيم مات من زمان.

- أنا جاي عشان أحييه من تاني، وساعتها هترجع للنور، مش مستخبي زي التعابين في جحورها

- شكلك واثق من كلامك أوي!

- ماعندكش حاجة تخسرها صدقني، وزي ما قولتلك،

اللي انت فيه ده مش حرية بجد، حرية مع إيقاف التنفيذ.

وقف الرجل وهمّ بالرحيل إلا أن رحيم استوقفه وقال:

- أنا مستعد أسمع عرضك، ويا أوافق يا لأ!

- حقك! بس أنا متأكد إنك هتوافق.

وضع أمام رحيم كارت به رقم هاتف، وقبل أن يترك المقهى التفت لصوت رحيم الذي قال متسائلًا:

- بس أنا ماعرفتش اسمك حتى!

ابتسم له وقال وهو يغادر المقهى:

- يونس، دكتور يونس أحمد ليل.

فور أن غادر يونس المقهى تحول الكلب الذي كان معه إلى رجل عجوز لينظر له متسائلًا:

- هتتق في مجرم يا يونس؟

ضحك يونس وقال:

- والله ما في مجرم غيرك يا زيتون! تاكل شاورما؟

شكر واجب

لقرائي،

عائلتي التي رزقني الله حبهم وعوضني بهم عن أشياء كثيرة..

لأسرتي،

السكان الأصليين لقلبي، دائمًا وأبدًا..

ولكل الأشخاص،

الذين لا يتبدلون في القلب مهما طالت السنين..

شكر خاص

إلى مبدعي المستقبل، هؤلاء الذين يخبروننا بما يقدمون أن الأمل في هذا العالم ما زال موجودًا:

يسري عفت، منة البلتاني، إسراء الشريف، آدم شريف، إيمان يحيى، ياسين رفيق، علاء جمال، نادين، إكليل، روان المرجاوي، سينين، هاجر علي، عمرو خالد، يوسف، مريم، سما، إلهام، ملك، أوشا، أميمة، حبيبة، مريم، ملك، شيماء، رقية، أسماء، سلسبيلا، فاطمة، سما، حنين، تامر، مارو، سهيلة، جنا، فريدة، ملك.

وباقي المبدعين...

شكرًا لشغفكم وحبكم لما تقدمون.

عن الكاتب:

• كاتب مصري من مواليد الإسكندرية ١٩٩٢

• تخرج من كلية الإعلام قسم إذاعة وتلفزيون

• حاصل على بكالوريوس الإعلام من جامعة Bedfordshire

• صدر له ١٠ أعمال أدبية

• يعمل في مجال التسويق والإعلانات والتلفزيون

• كتب للتلفزيون " المخبر – راجل و٢ ستات "

• كتب برامج اونلاين " كراكيب – حواديت نص الليل"

• كتب واخرج العديد من الإعلانات والأفلام القصيرة

• كتب مقالات في بعض الصحف الإلكترونية

• تصدرت روايته قائمة الأكثر مبيعا في المكتبات والمعارض الدولية

صدر للكاتب:

- حنين اضطراري
- آخر أيام آدم
- زي كل سنة
- كوابيس قبل النوم ١ (ترجمت للإنجليزية)
- كوابيس قبل النوم ٢
- كوابيس قبل النوم ٣
- في حضرة الموت
- السكان الأصليين للقلب
- بتوقيت الفراق
- اختفاء السيد ديفينهايم - ترجمة

للتواصل مع الكاتب:

Facebook- TikTok- Instagram

@Abdelrahman Haggag